محمد جبريل

اهيلا الشرقية

المينا الشرقية

رواية : محمد جبريـــــــــل

السؤال الوحيد

الذى طالما يواجهنا : إلى أى مدى نستطيع إرجاء الحَتْمى ؟

هنرى ميلر

ـ ١ ـ

زجاج القهوة يظهر الناس فى الطريق والكورنيش والبحر والسماء والمارة القليلين . عدد من الرواد اتخذوا أماكنهم على الطاولات المتباعدة ، يقرءون الصحف ، أو يتناقشون ، أو ينظرون ــ فى جلساتهم المنفردة ــ ناحية البحر . كل المقاهى والكازينوهات على امتداد الطريق ، أسدلت التندات لحجب أشعة الشمس عن الوصول إلى الطاولات . أتطلع إلى حدوة الكورنيش الموصلة بين السلسلة وخليج الأنفوشى . ربما تشاغلت بعد البلانسات والفلايك فى الميناء الشرقية ، أو تأمل مئذنة أبو العباس وقلعة قايتباى ، يشيان بحى بحرى القريب . أسراب النورس تحوم فوق سطح الماء ، تصخب ، وتصيح ، وتهبط بمناقيرها . تلتقط الأسماك ، وتعلو ، تتصاعد فى أسراب متداخلة ، تبدو سحباً رقيقة ، متحركة ..

أعدت النظر إلى الجالسين ..

ــ من يقصد الرجل ؟..

بدوا مشغولين فى متابعة قراءة يحيى عباس لقصيدته ..

أراقب الوجوه فى اهتمام ، الملامح والتعبيرات . لو أننى اقتحمت نفوسهم ، أتعرف إلى ما قد تخفيه البراءة الظاهرة . تتسلل نظرتى ، تحاول التقاط من تتجه إليه شكوكى ، من ينصت إلى المناقشات الجانبية ، أو يسجل الملاحظات ، أو يتنبه للكلمات ذات الوقع . أجوس مناطق قريبة وبعيدة . أتذكر أشخاصاً ومواقف ، استدعى أحداثاً . تدفعنى كلمات الرجل ، تمثل خيوطاً أكرّها ، أحسن التقاط طرف الخيط فلا أفلح فى انتزاعه من تشابك الخيوط حوله ..

قال يحيى عباس فى قصيدته :

تحت جدار الوطن المنفى ..

كنت أمد عروق دمائى

أتهيّأ للدفن

وحيداً فى الصحراء

يظهر جنرال الوقت فتياً

يأكل صحن بلاغته

الجوعى

والفقراء *

مسحت عيناى الجالسين بسرعة ، تحاول أن تلتقط رد الفعل .. لكن الأعين ظلت فى اتجاهها ناحية يحيى عباس ..

أعدت السؤال فى نفسى :

ــ من يقصد الرجل ؟..

لم يكن يشغلنى فى الندوة قبل ثمانى سنوات ــ من أتى ، ولا من انقطع ، ولا كيف تدور المناقشات . أتصور ــ أحياناً ــ أن كل واحد من الجالسين يريد أن يحقق نصراً . يعلو صوته ، فيسكت أصوات الآخرين . لا يدقق فيما يذكره من معلومات ، ولا الآراء التى يعلنها . المهم أن تنتهى المناقشة بابتسامة يجيد رسمها على شفتيه ، وإحساس بالخذلان يلف الجميع ..

قال لى الرجل وهو يحاول تعريفى بنفسه :

ــ حضرت ندوتك ثلاثة أعوام .. ثم حل بدلاً منى زميل آخر ..

كان رأسه خالياً من الشعر تماماً ، فيما عدا بعض الشعيرات المتداخلة السواد والبياض فى الفودين . له وجه

---

* القصيدة للشاعر حسين على محمد

ممتلئ ، دهنى ، وصدغان متهدلان . ملامحه لاتبين عن حقيقة مشاعره ، وإن أطلت فى عينيه جرأة واضحة . يرتدى بنطلوناً تتنافر زرقته مع لون السويتر البنى ، ولف حول رقبته تلفيعة من الصوف ..

استطرد للدهشة المتسائلة :

ــ كان حضور الندوة جزءاً من عملى ..

وقال فى لهجة معتذرة :

ــ أنا أهوى الشعر .. لكننى مساعد فى مباحث أمن الدولة ..

داخلنى قلق وتوتر . توالت الأسئلة مندفعة :

ــ ما دخل الندوة بالمباحث ؟ وماذا فيها لتراقب ؟ ومن حل بدلاً منك ؟

قال الرجل :

ــ ألا تعرف أن الندوة مراقبة ؟..

وشاب صوته نبرة تمثيلية :

ــ هذا عملنا يا أستاذ .. كل الندوات يجب أن نراقبها ..

علا صوتى بالدهشة :

ـــ لماذا ؟..

ـــ لأسباب أمنية ..

ـــ إنها قعدات مفتوحة ..

ـــ أى تجمع لابد أن نراقبه ..

من العين التى تتابع ؟ ماذا ترى ؟ وبماذا تملى على الورق ؟..

توالت القراءات والمناقشات ، لكننى ظللت غائباً عن كل ما حولى . امتلأت نفسى بالكثير من الهواجس والأفكار والتوقعات غير المحددة : كيف مضت الأعوام ؟ ومن كانوا يراقبون الندوة ؟ ومن يراقبها الآن ؟.. ومضت ، وتوقفت ، فى ذاكرتى مئات المواقف التى عشتها . لم أتمهل أمام معظمها ، ولا فكرت فيها ..

لأنى عجزت عن ملاحظة غير المألوف ، فقد شردت فى التذكر . أن أراقب دون سبب مفهوم ، كان ذلك يضايقنى ، ويصيبنى بالتوتر . أزمعت أن أتصرف كأننى لا ألحظ شيئاً ، كأننى لا أبالى . تعمدت أن يظل ما عرفته فى داخلى . تجاهلته ، أو أفلحت فى كتمه ، لا أبوح به ، حتى لا تعلو رائحة الخوف فى الندوة . تطرد المترددين عليها ، يؤثرون

الابتعاد وعدم التورط فيما قد ينشأ من مشكلات . صرت أميل إلى العزلة . بدا الصمت ملاذاً من توقعات قاسية . اكتفيت بأن أتيح الفرصة لمن يريد القراءة ، ومن يريد المناقشة . ربما ثارت فى داخلى آراء مؤيدة أو رافضة . أكتمها . أسير فى طريق ضبابية ، أو مجهولة النهايات ..

نبهنى محمد الأبيض إلى أن وقت الندوة انتهى قبل ساعة . أسندت المظروف الأصفر ، الكبير ، إلى صدرى ، وقمت ..

اعتذرت للباقين بموعد فى المنشية . أسرعت فى خطواتى لألغى فرصة مرافقتى . ألفوا الأسئلة وردودى عليها ، حتى أصل إلى محطة ترام ٤ المتجه إلى بحرى . ملت من شارع الغرفة التجارية المفضى إلى محطة الرمل . ثم ملت فى التقاطع ، وعدت ثانية ناحية طريق الكورنيش ..

تأكدت من إحكام الجاكت على رقبتى ، ومضيت فى تعالى زفيف ريح ، ينبئ بعاصفة قادمة ..

كانت الميناء الشرقية خالية من المراكب ، فغطس البحر فى سواد ، ماعدا الأضواء البعيدة ، المنبعثة من السلسلة ..

ـ ٢ ـ

تبدّلت حياتى بعد اللقاء العفوى بينى وبين الرجل . تبدّلت تماماً . لم تعد كما كانت . الإحساس بالخوف يمضنى . لماذا ؟ وممن ؟ . أنشغل ـ بالشرود ـ عن كتاب أقرأه . أعود إلى ما كنت قرأته ، ثم يهزمنى اليأس ، فأطوى الكتاب ، وأكتفى بالشرود . لم يعد يشغلنى إلاّ أن أقابل ذلك المجهول الذى لا أعرفه ..

لم تفارقنى فكرة أن أحداً ما يراقبنى ، يرصد كلماتى وأفعالى ، ويسجلها ، لا يفلت حتى ما يصدر بعفوية . أحاول أن ألتقط طرف الخيط ، البداية التى تقودنى لعوالم مبهمة ، وغامضة ..

كنت أتطلع فى الوجوه المحيطة بى ، أبحث عن واحد بالذات . لا أعرف ملامحه ، ولا إن كان من الدائمين فى الندوة ، أم من الطارئين عليها . هل يكتفى بالإنصات ، أو

يسجل المناقشات فى أوراق ؟. أحرص ، فلا تواجه عيناى نظرات الجالسين ، لا تكتشف قلقى . أتلفت ــ إن سرت ــ بتلقائية ــ حولى ، أتوقع العين التى ترصد . داخلنى إحساس بالمراقبة . ثمة من يتتبعنى ، لا يواجهنى ولا أراه . أشعر به . ربما يلاحق خطواتى . تطل نظراته من خصاص نافذة ، يراقبنى فى ناصية ميدان ، أو تحت ظل شجرة ، يتبعنى فى سيارة ، يلتحم بصفوف المصلين فى جامع أبو العباس ..

أفكر فى التوقف ..

أبطئ من خطواتى بالفعل ، لكننى أواصل السير ، لا أتلفت . يلفنى توقع لا أعرف طبيعته . يلح الإحساس بأن شيئاً ما سيحدث ، لا أعرفه ، ولا حتى أتخيل ملامحه ، لكنه يسيطر على تفكيرى ، ويشغلنى ..

لم أتخل عن الحذر ، ولا عن الخوف مما قد يحدث . الأعين التى تراقبنى ، تتابع تصرفاتى ، تحصى خطواتى ، وما أفعله ، منذ أن أترك البيت إلى عودتى له ، بعد الظهر ، أو فى المساء . أخاف لمجرد الخوف ..

اعتدت التزام الحذر فى التأكد من خلو الشارع . ربما عينان تترصدان قدومى ، تتابعان خطواتى من أول الطريق

إلى البيت . أدخل البيت بحذر . أدقق النظر جيداً فيما حولى . حتى حنية السلم ، أحدق فى الظلمة الشفيفة ، ربما تبين ملامح لم أفطن إليها فى النظرة العابرة ..

أفرغت محتويات مكتبى . مزقت الصور والأوراق . ومزقت أجندة التليفونات . قررت أن أستعين بذاكرتى وحدها . الأرقام التى تبعد عن الذاكرة ، أسأل عنها . لا أكتب ملاحظة تحمل المعانى الخطيرة ...

خمنت أن الذى يراقب الندوة لابد أن يكون أسبق الجميع فى الوصول ، وفى اختيار الموضع الذى يحسن المتابعة منه . جلست فى الكرسى المجاور للنافذة المطلة على طريق الكورنيش . ألفت حتى الوجوه التى تتردد على المقهى من غير زملاء الندوة . أرباب معاشات ، وتجار ، وعلاقات شابة ، جديدة . حتى باعة السلع الصغيرة : الساعات والولاعات والأمشاط والسبح ، ألفت ملامحهم ، وأتذكرها ، إذا التقيت بهم فى طريق الكورنيش ..

الرجل ذو البذلة الكاملة طيلة أيام السنة . يقارب الستين ، أو تخطاها . رأسه الضخم يتناقض مع عوده القصير ، ويتناثر فى وجهه نمش داكن . تبدو التقطيبة الدائمة على

وجهه كأنها جزء من وجهه ، وأضفى عليه شاربه الكث مهابة . لاحظت مداومته على تحريك عقدة رباط الرقبة . تصورت أنه ينوى فكها ، ثم أدركت أنها عادة له . ألفت رؤيته يجلس بمفرده على آخر طاولات المقهى ناحية اليسار . يقرأ جريدة ، ويرشف القهوة ، ويرمى بنظرات غير متأملة ناحية البحر ..

غاب التوقع فى دخول محمد الأبيض وفتحى عيداروس ويحيى عباس ونادر البقال . لم أفطن إلى من وصل قبل الآخرين ، وتبدّل أوائل القادمين فى المرات التالية . لم أعد أحرص على الوصول قبل السادسة . الموعد الذى حددناه لبداية الندوة ..

***

قال رأفت الجارم :

ــ المؤسف أن يكون ثمن انتصارنا فى أكتوبر .. التحالف مع أمريكا ، والصلح مع اسرائيل ..

قال نادر البقال :

ــ لكننا استعدنا سيناء ..

وداخل صوته أسى :

ـــ وإن كنا لا نستطيع أن نحرك فيها جندياً واحداً ..

قال رأفت الجارم :

ـــ مشكلة هذا البلد أنه ترك المسئولية لشخص واحد .. هو الذى يقرر متى نحارب ، ومتى نقبل السلام ..

قالت أسامة صابر :

ـــ أنا لا أدين اليهود .. يعتدون ويعرضون السلام .. أنا أدين من سكت عن الاعتداءات ورحب بالسلام الذى عرضوه ..

لماذا يحرص رأفت الجارم على أن يتقافز فوق حقل الألغام ؟ هل يلقى طرف الخيط ، فنلتقطه ، ويجد ما ينقله ؟..

قلت :

ـــ ألم نتفق على عدم التحدث فى السياسة ؟..

قال يحيى عباس :

ـــ كلام السياسة مثل شعر الذقن .. نتخلص منه فيعود ثانية ..

كنا نتحدث فى الأدب ، لكن الأحاديث كانت تفضى إلى السياسة . نسأل ، ونجيب ، ونناقش ، ونسترجع ما مضى ، ونطرح التوقعات . مكاننا الذى لم نبدّله زاوية المقهى المطلة

على طريق الكورنيش وشارع الأهرام . نسند الكراسى إلى الجدار المكسو بالخشب ، وتكتمل الدائرة ــ أمامها الطاولات عليها أكواب المشروبات ــ بصفوف الكراسى ، حدّها عمود من الأعمدة الثمانية التى تمتد فى الصالة الواسعة . يفصلنا عن حركة الطريق ستائر من التروكلين مسدلة على زجاج النوافذ ..

قال رأفت الجارم :

ــ نحن لا نحيا فى جزيرة منعزلة ..

رأفت الجارم ..

لاحظت أنه يحرص على تغيير مناقشات الندوة . يميل بها إلى الأوضاع الاجتماعية ، أو السياسية . ربما تكلم فيما لا تحتمله القصة أو القصيدة من دلالات ..

يداخلنى ــ بسماع آرائه ــ إحساس بأنه كثير القراءة والاطلاع . يكتفى بالتلقى ، لا يجاوزه إلى محاولة الكتابة . يعطى انتباهه لما يلقى من قصائد وقصص . يشارك فى المناقشات بآراء ، أتمنى لو أنها كانت لى . وكان يكتفى بابتسامة محايدة لفكرة أنه يكتب ، وأن عليه أن يقرأ لنا من كتاباته ..

هل يكون هو الذى ... ؟

لم أكن أحبه ، ولم أكن أكرهه أيضاً ..

***

كان المكتب يبعث رسالة ــ عصر كل يوم ــ إلى القاهرة . أخبار وتحقيقات ومقالات . أتوقع نشر القليل مما تتضمنه الرسالة ، ولا أنشغل بما لم ينشر . ربما لأنى كنت أكتب فى القضايا الأدبية ، وأشارك فى ندوات نادى سموحة ونادى سبورتنج والنادى النوبى ، وندوات المقاهى وقصور الثقافة ، تمنى الأدباء أن أؤدى دور الجسر لمحاولاتهم فى الجريدة . تقاطروا إلى المكتب ، يشاركنى فى الحجرة ثلاثة محررين .. فاروق أبو سليم محرر الفن ، وعبد السلام أبو ستة محرر الأخبار المحلية ، وسيد حماية محرر التحقيقات . يتملكنى الشعور بالغربة وأنا أحيا بينهم ..

كنت أعانى الحرج عندما يتحول الزملاء الثلاثة إلى جزر مختنقة فى بحر الزيارات وقراءة الأعمال والأسئلة والمناقشات . عفو الخاطر ، وما يفد إلى أذهاننا . نتحدث فى الشعر والقصة والرواية والمسرح والسينما والفن التشكيلى والموسيقا والغناء . ربما تطرقنا إلى السياسة .

أقطع الخيط فى بدايته ، حتى لا يتشابك ، فلا أستطيع التصرف . وكانت أحاديثنا ترتفع إلى قمم عالية ، فيصيبنى دوار ..

قلت :

ــ نحن هكذا نشكل ندوة أدبية ..

قال نادر البقال :

ــ ملاحظة صحيحة ..

لم أفلت الفرصة :

ــ ماذا لو أننا نظمنا ندوة خارج المكتب ؟..

قال يحيى عباس :

ــ فكرة !

قال قورة إدريس :

ــ تأسست فى الإسكندرية سنة ١٩٣٢ جماعة نشر الثقافة .. هل نعيد تأسيسها فى ١٩٨٢ ؟..

قال يحيى عباس :

ــ ولماذا لا ننقل جلساتنا إلى حدائق الشلالات ، ونعيد إسم جماعة الشلال ؟..

انشغلنا ــ فى الأيام التالية ــ بالبحث عن مكان . تصورنا خريطة لأماكن التجمعات ..

قال محمد الأبيض :

ــ النادى النوبى ينظم ندوة أسبوعية .. قد يرحب بندوة ثانية ..

قال قورة إدريس :

ــ أى عضو فى رابطة موظفى الحكومة .. لن يعترضوا على الندوة .. والصالة يجرى فيها الحصان ..

قلت :

ــ أفضل أن تكون الندوة غير تابعة ..

وهتفت بالتذكر :

ــ نحن نلتقى فى قهوة المينا الشرقية معظم أيام الأسبوع .. هذا هو المكان الأنسب ..

أعوامى الأربعون لا تجعلنى أكبر المشاركين فى الندوة . التصور بأنهم قد يفيدون من عملى ، دفعهم إلى القبول برئاستى . كان الأدب شاغلى . يهمنى أن أكتب ما أقدمه إلى الناس . أقرأه ، وأنشره . يسبق ما أكتبه كلمة " بقلم " . يضايقنى أنى أتحدث فى الأدب ولا أمارسه . أكتب عن

المؤتمرات والمهرجانات والمحاضرات والندوات ، أحاور كبار المثقفين ، أدير ندوة مقهى المينا الشرقية .. لكننى لا أكتب ما يقدمنى كأديب ، قصة ، أو رواية ، أو قصيدة ، أو مسرحية ، أى شئ يحقق لى صفة الأديب . جريت على القلم بما تصورت أنه يصلح للنشر . ثم أعدت قراءته ، فتبينت سخفه ، ومزقته . التقطت من الدكتور وجدى شعيب أستاذ الفلسفة بكلية الآداب قوله : قراءة الفن تستفز الفنان ليكتب . قرأت كل ما وصلت إليه يداى من كتب . حتى الصحف ، كنت أستعيرها من بائع الصحف أول الموازينى ، أدفع مقابلاً شهرياً ، وأقرأها . كنت أحيا فى الإسكندرية ، وتطلعى إلى القاهرة ..

المناقشات تبدأ ولا تنتهى . لا نأخذ بالنا من أتى ، ولا من انصرف . تتعرى الطاولات من المفارش ذات الزخارف الفرعونية ، وتتناثر فى الأرضية القنالتكس أعقاب السجاير المدهوسة . ينبهنا بسيونى الجرسون حين يطفئ النور ، ثم يعيده . ندرك أن ميعاد إغلاق القهوة قد حان . نلملم مناقشاتنا ، ونتحدث عن مواعيد مقبلة ، ونتهيأ للانصراف ..

قلت لنادر البقال ونحن نميل إلى ميدان المنشية :

ــ يبدو أنه على الإنسان أن يحفظ لسانه ، فلسنا ندرى من هو من الندوة ، ومن هو مدسوس علينا ..

كنت أرتاح للحديث إليه ، لأنه كان ينصت جيداً ، ويبدى اهتمامه ..

قال :

ــ تقصد أن بيننا عملاء ؟..

هززت رأسى مؤمّناً ..

قال :

ــ لمن ؟..

ــ للمباحث طبعاً ..

وهو يحدجنى بنظرة مستنكرة :

ــ ماذا تريد المباحث من ندوة أدبية ؟!..

وداخل صوته سخرية :

ــ هل أصبح الأدب من المحرمات ؟!..

تراقص أمامى ظل يمتد من الخلف . استدرت ، فبدا الرصيف خالياً . لا أحد . أدركت أن ظلينا قد عبث بهما تشابك أضواء الشارع ، والمعلقة على الأبواب . وكان ثمة طيف يقف تحت نخلة ، فى ناصية شارع الميدان ..

ـ ٣ ـ

حين علا أذان الفجر فى جامع أبو العباس ، كنت صاحياً ، مشغولاً باجترار ما حدث فى الندوة ، هذه الليلة . من كان يتابع القراءة ، ومن كان يتابع همسات الجالسين ، حرصت ، فلا تفوتنى أية حركة أو كلمة أو إشارة . لا أفلت حتى التصرفات العادية ..

ثم ابتلعتنى أمواج النوم ..

صحوت . نظرت فى ساعة اليد الموضوعة على الكومودينو المجاور ..

السابعة . ضوء الصباح يتسلل من خصاص النافذة ، وثمة تيارات من الهواء البارد ، تتدفع من تلاقى تقاطعات الشوارع ..

شارع حداية متفرع من ميدان الأئمة . على الناصية قهوة تطل على الشارع والميدان . يستطيع من يكلف

بالمراقبة أن يجلس فى الناحية المطلة على الشارع . يتتبع خطواتى حتى دخولى البيت . لو أننى تأملت السحن ، فسأفطن إلى الملامح الطارئة والغريبة . أعرف رواد القهوة ، حتى من لم تنشأ بينى وبينهم علاقات جيرة أوصداقات . يلى القهوة مخزن مغلق وسمكرى سيارات . يسهل أن أتبين فيهما عين مراقبة . الطوابق الأرضية فى البيتين المجاورين ، أعرف سكانهما بالإسم ..

البيت من ثلاثة طوابق . أسرة عطية السمادونى المدرس بمدرسة راتب الإعدادية فى الطابق الأرضى . لا يأذن لكشاف النور أن يدخل الشقة فى غير وجوده ، أو وجود مصطفى ، أكبر الولدين . أقيم مع أمى فى الطابق الأول . فوقنا أسرة الدخاخنى . الزوج عاشور الدخاخنى قارئ ومؤذن مسجد طاهر بك بالحجارى ، والإبنة الكبرى صفية فى كلية الآداب ، والوسطى هنية فى كلية الهندسة ، والصغرى ليلى فى الثانوية العامة بمدرسة رأس التين ..

منذ هبط جثمان أبى ــ قبل ثلاثة أعوام ــ محمولاً على الأيدى ، لزمت أمى البيت ، لا تنزل إلا لزيارة الصالحين من أولياء الحى . تعد الطعام ، وتغسل الثياب ،

وتنظف الشقة ، وتتلو آيات القرآن ، وتتهدج بالأدعية ، وتكرر الكلام عن قطار الزواج الذى قد يفوتنى ..

أتأمل الوجه الذى لم تؤثر التجاعيد حول العينين والفم فى جماله . الصفاء الطفولى يطل من عينيها ، والابتسامة الهادئة ترافق صمتها وكلامها ..

أقبل أطراف أصابعى المضمومة :

ـــ لن أجد زوجة أجمل منك !..

تشيح بيدها :

ـــ خذ الأمور بهزار حتى ترفضك البنات ..

كانت تعانى ما أعانيه . تكتفى بالنظر ، والتأمل الصامت ، المشفق . لم أصارحها ـــ ولا لمحت ـــ بما حدث . تصورت القلق ، والخوف ، والأسئلة التى لن تنتهى ..

جفانى النوم ثانية ، فقمت . ارتديت ثيابى ، ونزلت إلى الطريق . تطلعت إلى ما حولى ، وأمعنت النظر . لا أحد ، والشوارع هادئة ، والصمت سادر ، وثمة عجوز وحيدة ، التف جسمها ببالطو من التيل الباهت اللون . جلست على المقعد الحجرى ، قبالة الكورنيش ، تطعم ثلاث قطط فتات خبز مغموساً فى اللبن ..

توالت الصور متلاحقة ، متشابكة ، لا أدرى لماذا تذكرت قول نادر البقال :

ــ أعترف أنى لا أعرف الفرق بين الرواية الجديدة والرواية الضد والرواية اللابطل والمدرسة الطليعية والمدرسة الحديثة ومدرسة العبث والشكلية والبنائية .. تسميات كثيرة متلاحقة .. لا أستطيع أن أفرق بينها ..

كان نادر البقال يراجع كلماته أثناء النقاش . يتصور أن الكلمات ليست كافية لتوضيح رأيه . لا يطمئن إلى وصول المعنى ، يضيف إلى ما قاله ، ويحرص على توضيحه . كلمات لتأكيد المعنى ، ثم يزيد فى حديثه . يبدو أنه أنهى رأيه ، لكنه يبنى عليه رأيا آخر . ربما أشار إلى أنه لم يعد لديه ما يقوله ، ثم يضيف ما قد ينشئ قضايا لم تكن واردة . يتأمل ما قاله . يخشى أنه لم يحسن التعبير ، أو أن الجالسين لم يفهموا . يعيد صياغة الكلمات ، أو يضيف إليها . الكلمات تجر كلمات أخرى كثيرة ، تالية ، والفكرة تمضى فى طريق غير واضحة ، أو تتشظى إلى أفكار يعجز عن حلها . يستطرد إلى جوانب لا تتصل بالقضية التى نناقشها . تراكمات من الكلام تبدو ــ فى النهاية ــ غير متصلة . لا

صلة لما بدأ به كلامه ، بما أصر أحدنا على أن يقاطعه ليبدى رأيه . وكانت تشغله آراء الآخرين ، وملاحظاتهم . يبدى اهتمامه بكل ما يقال ، ويعانى الارتباك ..

قلت :

ــ أرى أن نخصص ندوة لكل مدرسة ..

قال كمال أبو القمصان :

ــ ومتى نقرأ كتاباتنا ؟..

قلت :

ــ نحن ورشة أدبية .. المفروض أننا نتعلم ..

قال فتحى عيداروس :

ــ أفضّل أن أكون بلية فى ورشة أسامة صابر ..

تلفت محمد الأبيض ــ بتلقائية ــ حوله :

ــ الحمد لله إن أسامة غير موجودة ..

وجرى فى الهواء براحة يده :

ــ كانت قطّعتك ..

لم تكن أسامة جميلة الملامح ، وربما بدت ملامحها غير متناسقة ، فدقة الأنف تناقض غلظة الشفتين واتساع الفم

، والجبهة العالية أقرب إلى الاستدارة ، ولكن أسامة كانت تروق لى . يجذبنى إليها بساطة آسرة ..

قالت :

ــ الفتاة التى يقيم الرجل علاقة معها .. هل يفترض أنه يحبها ؟..

لعينيها نظرة صريحة ، تثبتها فى عين من تتحدث إليه ، فتربكه ..

قلت :

ــ طبعا ..

وضعت ساقاً فوق ساق ، وراحت تهز قدمها المدلاة :

ــ حتى لو كانت علاقة ليلة ؟..

عرانى ارتباك :

ــ هذا شأن آخر ..

وهى تعبّر بشفتيها وفمها وتقاطيع وجهها وأصابعها :

ــ لماذا لا أبحث فى الشاب أنا أيضاً عن هذا الشأن الآخر ؟..

وزوت ما بين حاجبيها :

ــ لماذا لا أجرب المتعة دون ارتباطات .. مثل الرجل ؟!..

وامتصت السيجارة بقوة ، فغارت وجنتاها :

ــ بصراحة .. أنا لا يشغلنى الرجل الذى أصحبه إلى بيته لأمارس الجنس معه ..

ثم وهى تضغط على نهاية الكلمات :

ــ ما حققه الأديب الرجل من تفوق على الأديبة المرأة يعود إلى حريته فى إشباع غريزته الجنسية .. وهو ما لا تمتلكه المرأة ..

وران على صوتها تهدج :

ــ لماذا لا تملكه المرأة ؟..

وتطلعت ــ بعين غير متأملة ــ إلى امتداد الأفق :

ــ أنا لا أرغب فى مجرد العلاقة الجنسية .. الجنس فى ذاته لا يشغلنى .. ما يهمنى هو التخلص من القيود التى يحرص الجميع على تكبيلى بها .. العفة المفروضة بالأوامر والتوجيهات ..

وارتعشت ملامحها بالانفعال :

ـــ إذا كان للرجل إرادة ، فإن للمرأة إرادتها كذلك .. وإذا كانت إرادة الرجل تزين له إقامة العلاقات العاطفية والجنسية .. فلماذا تحجم المرأة عن ذلك ؟

ثم أنزلت ساقها ، ومالت بجسمها إلى الوراء :

ـــ لماذا يطاردنى الرجل ، وأتظاهر بأنى رضخت فى النهاية ؟!.. تستهوى الرجل فتاة ما ، ولابد أن رجلاً ما يستهوى الفتاة .. فلماذا يعلن ما بداخله ، وتكبت هى ما بداخلها ؟..

قال فتحى عيداروس :

ـــ أنصحك بصداقة سيدى العجمى .. فهو يكره النساء!

استطرد قورة إدريس :

ـــ وهو أيضاً حامى الحشاشين ..

أضاف للدهشة فى عينى أسامة :

ـــ اعتاد الحشاشون أن يرضوا المزاج وراء ضريحه..

خمنت أنه لا يفكر فى المناقشات التى يدلى فيها بآرائه . لا يناقشها فى ذهنه ، ولا ينشغل بها بعد أن ينصرف . ربما جلس إلى أصدقاء آخرين ، أو شاهد فيلماً فى التليفزيون ، أو مارس رياضة المشى . قد يفعل شيئاً ، أو أشياء ، لكنه

لا يخلو إلى نفسه لتدبر مشكلة ما . وإذا تحدث ، تلاحقت الكلمات ، كأنه يريد أن يتكلم فى أشياء كثيرة ، فى اللحظة نفسها ..

فوتت ملاحظة فورة إدريس . اتجهت إلى فتحى عيداروس بعينين متسائلتين :

ـــ لماذا العجمى ؟..

قال فتحى عيداروس :

ـــ لجأ إلى المنطقة التى تسمت باسمه .. فراراً من زوجة أبيه التى أساءت معاملته .. وعاش حياته يكره النساء ويكره استقبالهن .. حتى بعد وفاته !..

قالت أسامة صابر وهى تدفعه بأصابعها فى صدره :

ـــ أنا أريد من يحبنى لا من يكرهنى !..

قال محمد الأبيض :

ـــ لن تجدى من يحبك ويوافق على شروطك الغريبة!..

رمقته بنظرة استياء :

ـــ حتى فى الزواج .. أرفض منطق البنت التى تنتظر تقدم الولد لخطبتها ..

وعدّت على أصابعها :

ـــ بلا زواج .. أستطيع أن أذهب إلى السينما بمفردى ، وأتردد على المطاعم ، وأتجول فى الأسواق ، وأتفرج على الفاترينات ، دون أن أخشى غضب زوجى ولومه ..

وجاشت عواطفها :

ـــ حريتى أجمل من أن أخضعها لمن ينظر فى الساعة عند عودتى إلى البيت ، أو يقطع قراءتى فى كتاب ليطلب فنجان قهوة ..

ثم وهى تهز رأسها :

ـــ المصيبة أن الزواج يعنى إقامة علاقة جنسية بموافقة المجتمع ..

التقطت أذنى ماهمس به قورة إدريس لنادر البقال :

ـــ أثق أن فخذى أسامة صابر لم يلتقيا منذ البلوغ !..

غلب محمد الأبيض انفعال :

ـــ هل أنت واحد من الذين غزوا فخذيها ؟..

قال نادر البقال :

ـــ أسامة رجل فى اسمها وتصرفاتها ..

وتداخلت فى صوته بحة :

ــ أثق أنها لن تسلم نفسها إلاّ للرجل الذى ستتزوجه ..

رمقه قورة إدريس بنظرة مرتابة :

ــ تثق ؟!

وهو يتجه بعينيه إلى الناحية المقابلة :

ــ لى تجربة فاشلة معها !..

قال محمد الأبيض :

ــ أسامة تذكرنى بأسطورة كاينيس Kainis بنت ملك اللابيثيين ..

قال فتحى عيداروس :

ــ أسامة بنت الحاج صابر أصبحت أسطورة ؟!

قال الأبيض :

ــ كانت كاينيس ترفض الزواج حتى لا تخضع لسلطة أى رجل ..

قال قورة إدريس :

ــ ما أعرفه أن فتاة الأسطورة تعرضت للاغتصاب .. وأسامة قد تفعل هى فعل الاغتصاب !

وجرى بأصبعين فوق شفته العليا ، يبرم شارباً وهمياً :

ـــ ثم إنها منحت القدرة على التحول إلى رجل حتى تحمى نفسها ..

قال نادر البقال :

ـــ أسامة ترفض دور الأنثى من أصله !

وأنا أعبر طريق الكورنيش ، توقفت لعبور سيارة لورى زرقاء مغلقة ، تهتز قضبان النافذتين من كل جانب بأيد لم أر أصحابها ، وإن ترامت أصواتهم بالهتاف : اسلامية .. اسلامية ..

ـ ٤ ـ

شئ ما بدأ يتسلل إلى داخلى بالضيق . علت التوقعات والتخمينات والأسئلة . كانوا ينصتون إلى القصة . يقرأها كمال أبو القمصان بصوت منغم ، ويضغط على مخارج الكلمات . أتظاهر بالإنصات ، لكننى كنت أصيخ السمع إلى الهمسات الجانبية ، أستعيد الكلمات ــ بينى وبين نفسى ــ أتأمل معانيها المعلنة والخفية ، وأرقب التصرفات باهتمام ، انعكاسات الأسماء والتعبيرات التى تنطلق من على الطاولات المتلاصقة . أهملت ملاحظة محمد الأبيض بأنى لم أعد أدير الندوة جيداً ، وأنى أكتفى بالتأمل . يشغلنى المجهول ، الغامض ، الذى أتوقع ظهوره ..

تملكنى شعور بأنه ثمة من يراقب كل كلمة ، وكل تصرف . النظرات ترمقنى ولا أراها ، وإن كنت أشعر بها . تحولت الأعين المحيطة بى إلى عين كبيرة ، واسعة ، تربكنى ، فأنا لا أستطيع الكلام أو الحركة بطبيعتى . أضع حساباً للعين التى لا تهمل كلمة أو تصرفاً . أخشى أن أقول ما لا ينبغى قوله ، ما يؤخذ علىّ ، ويساء تفسيره . ألوذ

بالصمت . أتحصن به . الصمت وحده يبعد الآذان المتنصتة ، والتوقعات . حتى القضية التى أجد لنفسى رأياً فيها ، أكتم ما بداخلى ، لا أعلنه . ربما أجبت عن السؤال بإشارة صامتة ، أو هزّة رأس ، أو تعبير باليدين . ربما الملاحظة ــ والمؤاخذة ــ على طريقة الكلام ومدى الانفعال ، مدى الإحساس بالأمل والخيبة والفرح والإحباط . تهت فى طرق متعرجة ، لا أعرف إلى أين تنتهى ، ولا كيف أخرج منها ..

ملأنى الإحساس بــأن شيئاً ما خطيراً يوشك أن يحدث ، أتوقع ما لم أحدد صورته ، ما يصعب تصوره . غابت العفوية فى الكلمات . أتأمل وقعها ، وأتدبره . ربما ــ إن أصبحت سطوراً على الورق ــ تحمل ما لا أريده من المعنى ، وتورطنى فيما لا أقصد قوله . تبدو التصرفات بريئة ، ولا تثير الشك ، لكنها ليست كذلك ، ويجب أن أتنبه إليها . حاولت أن أعود إلى مألوف مشيتى ، فلم أوفق . حتى خطواتى أشعر بارتباكها لتصور الخطوات المتابعة ..

كنت أدرك ــ منذ كلمنى الرجل ــ أن الأعين المبثوثة تراقبنى . ربما ليس فى الندوة وحدها . أتوجس من النظرات

فى الجريدة ، وعلى الرصيف المقابل للبيت ، وفى محطة الأوتوبيس بميدان المنشية . يصطدم كتفى بمن لا أعرفه . لا ينطق باعتذار ولاعتاب ، وإن تأكدت فى نظراته أنه يعرفنى . وكنت أحرص على إصاخة سمعى من وراء باب الشقة ، وأنظر من العين السحرية ، ومن خصاص النافذة حتى للهمسات التى تلتقطها أذنى ..

كنت ــ قبل أن أغلق ضلفتى البلكونة ــ أطل على الشارع . أطيل تأمل الجالسين على القهوة والواقفين والمارة والمطلين من النوافذ المقابلة . نظرت ــ للمرة الأولى ــ من نافذة المنور : الأقفاص وقطع الخشب والصناديق المتكومة إلى قرب منتصف الطابق الأرضى ومواسير المطابخ والحمامات ودورات المياه علاها الصدأ ، وسرت بالنشع فى الحوائط . أستكين لمعرفتى بأن مفتاح المنور نسخة وحيدة عند ساكن شقة الطابق الأرضى ، ولكن الأسئلة تظل تلح علىّ ، وتثيرنى ..

عادت الأسئلة تفرض نفسها : من ينقل ما يدور فى الندوة ؟.. من يكتب التقارير ؟.. هل هو نادر البقال ؟ ملاحظاته العفوية لا تشى بذلك . هل هو محمد الأبيض ؟..

لم يكن يشغلنى حضوره ، ولا غيابه ، ولا أين يذهب أو يجئ . تبدّل الحال بعد أن وضعت قلقى فى النظرات المحدقة ، المتطلعة إلى ما وراء الكلمات والتصرفات . بدأ اهتمامى به لأنى بدأت أهتم به ..

قال فتحى عيداروس :

ــ الولد محمد الأبيض أشبه بصدفة لا يعرف أحد ما بداخلها ..

كنا قد ألفنا غيابه عن الندوة ، وعودته إليها . تمر الأشهر دون أن يأتى إلى المينا الشرقية ، أو حتى يذكر أحدنا أنه التقى به . يكتفى بالقول ــ رداً على السؤال ــ : كنت مسافراً . لم يكن يتحدث عن عمله ، ولا عن ظروفه الأسرية . يحضر فى بداية الندوة ، ويظل إلى انتهائها . يمضى من شارع الأهرام الجانبى إلى شارع الغرفة التجارية ، فميدان المنشية . يواصل السير فى شارع فرنسا ، بينما تمضى الأوتوبيسات بالآخرين إلى أحياء المدينة ..

تحدث عن بيته المطل على ناصية شارعى رأس التين والموازينى ، وتحدث عن المكتبة الحجازية التى يشترى منها الكتب ، ويستعيرها ..

* * *

عرفت أنه يطيل الوقوف ـــ للقراءة ـــ فى المكتبة الحجازية بشارع الميدان ..

كنت أريد أن التقى به بعيداً عن القهوة . ميزت قامته الطويلة ، والصلع الذى تسلل إلى مقدمة رأسه ، وحاجبيه الكثيفين ، وعينيه السوداوين ، وراء نظارته الطبية . الكتب ـــ بلا انتظام ولا ترتيب ـــ تعلو الأرفف وعلى الأرض وفوق الطاولة التى تفصل بين الشارع ومدخل المكتبة . آلاف الكتب المجلدة والجديدة والمهترئة . يبدو فى وقفته ، مستنداً إلى الجدار جزيرة ساكنة وسط صخب شارع الميدان : أصوات صحن البن والنداءات والصيحات والشتائم والأدعية ، وروائح السمك المشوى والكابوريا والجمبرى والملح والعرق ، ورائحة الشواء المترامية من كشك زجاجى على ناصية شارع إسماعيل صبرى ..

قال محمد الأبيض فى لهجة مرحبة :

ـــ هل تريد كتاباً محدداً ؟..

ألفت لثغة لسانه ، وتحويل الراء غيناً ..

ـــ بل أريد أن أتحدث إليك ..

نطقت عيناه باهتمام ، وإن ظل صامتاً ..

أعدت تأمله : الاسم يتناقض مع البشرة القمحية ، والعينين السوداوين ، والأنف الضخم ، والشفتين الممتلئتين ، وإن بدت ملامحه ــ فى مجموعها ــ أقرب إلى الوسامة . كأنه ألصق البسمة على شفتيه ، تعلق بجانب فمه كالسخرية . وكانت لهجته تلتف بخطورة ، ربما تغيب عن الكلمات . فإذا ضحك غلبه الانفعال ، واهتز جسده ..

روى رأفت الجارم أن محمد الأبيض يهوى اقتناء الكتب الثمينة والنادرة ، ملأ بها ثلاث خزائن هائلة فى صالة البيت ، وإن أكد فتحى عيداروس أنه تركها على حالها ، فهو لا يقرأها ، ولا يأذن لأى من أصدقائه باستعارتها ..

سرنا فى اتجاه الموازينى ..

أزمعت أن أتعرف إلى ما يهمنى دون أن أتطرق إلى المراقبة . شرق حديثنا وغرب . اكتفيت بالأسئلة ، وبدا الصدق فيما روى . قطع تعليمه عندما أدرك أن ظروف أسرته لا تقوى على تكاليف الدراسة الجامعية . رضى بوظيفة فى مصلحة الموانى والمنائر . للأنفوشى رائحته التى أتبينها بمجرد اقترابى منه . اختلاط رائحة اليود والملح

والطحالب والأعشاب والأصداف والأسماك الميتة . أتذكر الأنفوشى إذا صادفت أنفى رائحة مقاربة . جلسنا فى قهوة تطل على ميدان أبو العباس وباب الجامع والبناية الهائلة التى سدت الطريق إلى السيالة وياقوت العرش . إلى اليسار الحديقة ذات الفسقية المتهدمة ومستشفى الأطفال . وإلى اليمين يمضى الطريق إلى قلعة قايتباى ومعهد الأحياء المائية وحلقة السمك ..

فاجأنى بقوله :

ــ هل قرأت مقال عاطف المنياوى فى الأهرام ؟..

لم أكن قرأت المقال ، فسكت ..

وشى تهدج صوته بتوتر :

ــ إنه يعيب على الدولة تأخرها فى تطبيق الخصخصة ..

وكز على أسنانه ، فأحدث اصطكاكها صوتاً مسموعاً :

ــ ما يحيرنى أنى قرأت كتابين للرجل فى عهد عبد الناصر عن حتمية الحل الاشتراكى

اصطنعت ابتسامة متوددة :

ــ لكل عهد ظروفه ..

ظل على توتره :

ــ ورجاله ..

ثم وهو يهز رأسه :

ــ عاطف المنياوى وأمثاله رجال كل العهود ..

وأشاح بيده ذبابة حطت على أنفه :

ــ مشكلة هذا البلد أن مثقفيه إما وصوليون ، أو عاجزون عن الوصولية !..

قلت ، ربما لأجاوز الصمت الذى ساد لحظات :

ــ ماذا تعمل ؟..

ــ أراسل بعض الصحف فى الخليج ..

غابت الراء تماماً فى الغين الواضحة ..

قلت فى صوت مبطن بالود :

ــ من الإسكندرية ؟..

وهو يراقب حصاناً تكوم أمام العربة الكارو ، وسط شارع الميدان :

ــ مقالات الأدب لا تشترط موطناً ..

غمزت بعينى :

ــ صحف الخليج الآن مورد رزق أدباء الترحيلة المصريين ..

قلب شفته فى استياء :

ــ تعبير غير لائق ..

وأنا أتأمله بنظرة طويلة :

ــ لكنه دقيق ..

واجهنى بملامح مكتئبة :

ــ أنت تتقاضى مرتباً ثابتاً ..

وسبحت نظراته فى آفاق غير مرئية :

ــ لولا مكافآت هذه المقالات لمت من الجوع ..

واتسعت فتحتا أنفه :

ــ أنا مفصول من عملى ..

أدركت أنى سرت فى طريق خاطئة . لم أسأله عن وظيفته ، وما إذا كانت مراسلة صحف الخليج مورد رزقه الوحيد ..

ــ أعرف المحررين فى مكاتب الصحف بالمدينة .. تصورت إن المراسلة عمل إضافى ..

ــ هذا عمل فرضته الضرورة ..

قلت متنبهاً :

ـــ لماذا ؟..

ـ ٥ ـ

استيقظ على دقات عنيفة ، متوالية . بادلته أمه نظرة خائفة ، متسائلة . تخيل إن الطرقات ستحطم الباب ، أو تخلعه .

تدافع الرجال للدخول ، يرتدون البدل والبلاطى فوق الجلابيب ، والعصى فى أيديهم . أضيئت الأنوار فى النوافذ المقابلة ، والمجاورة ، على وقع الأقدام والنداءات والأوامر .

فتح الرجال أبواب الدولاب . فتشوا الملابس والأوراق والكتب . بعثروا كل ماوصلت إليه أيديهم ..

تبعهم إلى حجرة النوم . جلس إلى جوار الأم على حافة السرير . غاصت أيديهم فى مرتبة السرير والوسائد واللحاف ، مزقوها بمطاو ..

اتجهت نظراتهم إلى غير شئ ، وإن مسحت جوانب الحجرة ..

قلب الكتب . تنقل بعينيه بين سطورها . فقه السنة للشيخ سيد سابق .. من هنا نبدأ لخالد محمد خالد .. رد قلبى ليوسف السباعى .. بين القصرين لنجيب محفوظ .. الزعيم أحمد عرابى لعبد الرحمن الرافعى .. فى بيتنا رجل لإحسان عبد القدوس .. البيضاء ليوسف إدريس ..

ـــ من تشيكوف ؟..

ـــ مؤلف هذا الكتاب ..

زعق :

ـــ أعرف القراءة .. من هو ؟..

ـــ أديب روسى ..

رمقه بعين باردة :

ـــ شيوعى يعنى ..

أدرك غياب الجدوى فى أن يخبره بـــأن تشيكوف لم يلحق الشيوعية ، فظل صامتاً ..

أعاد الضابط الكتاب إلى موضعه :

ـــ هذه أيام التطرف الدينى .. ما يهمنى هو كتب الدين ..

ـــ كتب الدين جزء من مكتبتى ..

ـــ لن تقنعنى بأنك شيوعى بينما تخلى الروس عن الشيوعية ..

صرخ :

ـــ أنا ولا حاجة .. أنا أقرأ وأكتب لأنى كذلك ..

ـــ كثرة كتب الدين تشى بميولك ..

ـــ هذا افتراء ..

اصطنع الهدوء :

ـــ سأفوّت ما قلت لأنى ضيف فى بيتك ..

ثم بلهجة فاترة :

ـــ تنظيمك إسلامى ..

اتسعت عيناه بالذهول والخوف :

ـــ أى تنظيم ؟..

دون أن يجاوز هدوءه :

ـــ التنظيم الذى تعمل معه ..

خرجت الكلمات مبحوحة :

ـــ أنا لا أعرف عم تتكلم ..

كان الضابط قد جمع كتباً ذات عناوين دينية : إحياء علوم الدين .. محمد رسول الله والذين معه .. إنجيل برنابا

.. على هامش السيرة .. الفقه على المذاهب الأربعة .. دفع بها إلى الضابط الشاب الواقف بجانبه ، وقال وهو يتجه إلى باب الشقة :

ـــ تعال معنا .. ستعرف عم أتكلم ..

وضع رجلان يديه خلف ظهره ، وعصبا عينيه ..

***

داخله اطمئنان ، عقب مفاجأة الاعتقال . يثق أنه لم يكن له ـــ فى يوم ما ـــ علاقة بالسياسة . لم يشارك فى مظاهرة ، ولا اعتصم داخل الجامعة ، ولا وزع منشورات ولا شارك فى تنظيم سرى . حتى عمله فى مصلحة الموانى والمنائر ، لم يكن له فيه أصدقاء ، ولم يكن يملك سراً يحتفظ به ، فلم يجهد ذهنه فى استيعاب ما حدث ، تقبّله على علاّته ، ودون فهم ، وإن تيقن أن الخطأ الذى حدث ـــ هو خطأ بالتأكيد ـــ سيفطنون إليه . يكتشفون حقيقته ، فيعتذرون ويفرجون عنه . يعيدونه إلى البيت ..

مل الانتظار على الكرسى الوحيد بالحجرة الخالية من الأثاث . لا نوافذ ، وتدلت من السقف لمبة شاحبة الضوء . نسى ساعته فى البيت ، فغاب الوقت . تتناهى همسات ،

نداءات شاحبة ، تقترب خطوات ، وتتلاشى . إذا تنبه على صوت ، اتجهت عيناه إلى الباب ، ينتظر فتحه . لم تشغله النهاية ، وإنما توتر الانتظار ..

قلب الضابط لحظات فى الملف أمامه . ثنى غلافه ، فلا يبين إلاّ أطراف الأوراق داخله . حدجه بنظرة متأملة ، ثم نظر إلى الملف . ثم تطلع ــ ثانية ــ إلى وجهه ..

ــ أين كنت عصر يوم الأحد ؟

وهو ينفض يديه :

ــ لا أذكر ..

جز الضابط على أسنانه :

ــ لا تذكر ؟!..

ثم بصوت أهدأ :

ــ من حرضك على وضع القنبلة فى السنترال ؟..

تماوج ــ فى داخله ــ القلق والدهشة والخوف . أطال النظر إلى الضابط ، يتأمله . وجه شمعى ساكن الملامح ، لا يعبر عن انفعال ، ونظرة زجاجية ، باردة ، عجز عن النفاذ منها ، أو تخمين ما وراءها . أبرز مافيه خصلة شعر متهدلة

فى مقدمة رأسه ، وأنف طويل ، معقوف ، وبدا شاربه خطاً عريضاً فوق شفته العليا ..

ــ لا أعرف ما تتحدث عنه ..

ــ وضعت القنبلة فى السنترال .. من الذى دفعك إلى ذلك ؟..

عرض صديقه إسماعيل الحمامصى أن ينتظره فى السيارة حتى يدفع فاتورة التليفون . اقترح الحمامصى أن يصحبه إلى سينما ريالتو . اعتذر بمرافقة أمه إلى الطبيب . قال وهو ينزل من السيارة على ناصية شارع السلطان حسين :

ــ أنتظرك غداً فى محطة الرمل ..

لم يكن الضابط ينصت إلى الأجوبة . الأسئلة تتوالى ، ورجل جالس على جانب المكتب ، يسجل ما يمليه الضابط من أسئلة وأجوبة ..

قال :

ــ دخلت مبنى السنترال ويداى خاليتان من أى شئ !..

وغلبه انفعال :

ــ ليس لديكم ما تأخذونه على ..

ثم وهو يدفع إليه بما فى جيوبه :

ــ هاهى ذى أوراقى كلها سليمة .. البطاقة .. رخصة السيارة .. رخصة القيادة ..

مد الضابط يده :

ــ أرنى ..

كرر الأبيض مدفوعاً برغبته فى الخلاص :

ــ كلها سليمة !..

كور الضابط البطاقة والرخصتين بآخر ما عنده ، ثم قذف بها على الأرض :

ــ والآن ؟!..

صرخ :

ــ لماذا ؟..

ــ لكى نبدأ من أول السطر ..

بدا أن الضابط يثق فى تلف الأعصاب بانقضاء الوقت ..

ــ ماذا تريدون ؟..

ــ لماذا وضعت القنبلة ؟..

صعدت السخونة إلى رأسه :

ــ أى قنبلة ؟!

أهمل الضابط إجابته المتسائلة :

ــ من حرضك على وضعها ؟..

ــ أنا لا أعرف شيئاً عن القنبلة التى تتكلم عنها ..

وهو يهز سبابته :

ــ تعرف .. ولا بد أن تتكلم ..

مط شفته السفلى بما يعنى عدم الفهم :

ــ أتكلم عما لا أعرفه ؟!..

هوت الصفعة بصفير :

ــ تتكلم عما تعرفه ..

وواجهه بعينى الشرر :

ــ التنظيم الذى دفعك إلى وضع القنبلة ؟..

واعد رانيا على اللقاء فى الثالثة أمام السنترال ..

كان قد حدد لنفسه نصف ساعة يدفع قيمة عقد التليفون . ينزل من الدور الثالث إلى الباب الجانبى . يلقاها فى انتظاره . يمضيان إلى ميدان محطة الرمل . ظل فى مفاجأة ما حدث ، حتى أغلق عليه باب الحجرة فى المكان الذى لم

يتبينه . لم يلحظ حتى إن كانت رأته وهم يقتادونه إلى السيارة السوداء ..

تلاشت الطمأنينة فى القلق حين اقتيد ــ معصوب العينين ــ إلى سيارة . وشى طول الوقت ببعد المسافة . ترامت أصوات أبواب ومزاليج ، تفتح وتغلق ، يعقبها نداءات وصيحات مختلطة ومشوشة . ثم عاد الصمت ..

دفعته قبضته فى ظهره . اندفع إلى الأمام . تماسك حتى لا ينكفئ على وجهه . أحس بألم فى أصابعه لثقل جسمه عليها . تعثر فى يد أمسكت بساقه . لحقته أيدى سحبته إلى الأرض المبلطة . انهالت عليه الهراوات ، وقبضات الأيدى ، وركلات الأقدام . اختلطت الضربات ، وتوالت . لم يعد يدرى من يضربه ، ومن يكتفى بالفرجة ....

لم يدرك إن كان هو الذى نفذ الأمر ، أم أن ثيابه نزعت عنه . أجبروه على نزع ثيابه تماماً . حتى ثيابه الداخلية نزعها ..

زعق الضابط ذو الوجه الشمعى . انهال عليه أقرب الرجال بالعصا . جرى وجرى ، والعصى تجرى وراءه ، تنزل على ما تصل إليه من جسمه ..

أغلق الشرطى من ورائه الباب الحديدى المصمت ، خلت الحجرة من النوافذ ماعدا كوة صغيرة أعلى الجدار ..

بدا الرجال الثلاثة متباينى الأعمار ، ارتدوا ثيابا مدنية ، بدلاً صيفية كالتى يرتديها السعاة . اختلطت ملامحهم فى عينيه ، وتشوشت . لم يعد فى الذاكرة إلاّ وجه مجدور ، وبشرة سمراء اصطبغت بلون نحاسى ، وصدغين متهدلين ، وأنف أفطس ، وعينين تعانيان جحوظاً واضحاً ، ورأس انغرس بين الكتفين ، فبدا الجسد بلا عنق ..

قال الرجل الواقف أمامه :

ــ لماذا لم تعترف بجريمتك ..

رفع إليه عينين مرهقتين :

ــ أنا لم أرتكب جريمة ..

أطال الرجل تأمله ، وقال وهو يسوى شاربه :

ــ ليس عندى وقت لأضيعه معك ..

وشخط بآخر ما عنده :

ــ من دفعك إلى وضع القنبلة ؟..

ــ لا أعرف عم تتكلم ..

أظهر الرجل نفاد صبره :

ــ ستعرف حالاً !..

تقدم الرجلان . ثنيا ذراعيه وراء ظهره ، وسدد الثالث ، الواقف أمامه ، لكمات متوالية فى بطنه ، حتى سقط على ركبتيه . رفعه الواقف أمامه بساعده ، ورفعه فى الفراغ ، ثم قلبه دون أن يقوى على التملص أو المقاومة . علق قدميه فى حبل مبروم متدلّ من السقف ، ورأسه فى أسفل . يرى ما حوله بما لم يستطع التحقق منه . توالت الضربات على القدمين المعلقتين ، سريعة ، متلاحقة . صرخ للمفاجأة ، وللألم . ثم ذوت مشاعره . لم يعد يتألم ولا يصرخ . انفصلت قدماه عن جسمه ، وعن مشاعره . أغمض عينيه ، وسرح فيما لم يتبينه . حل شعور يختلف عن الألم ، لحظات تناوحت فيها المشاعر ، وإن فرضت خصوصيتها المؤكدة ..

لما أنزله الرجل ، لم يستطع الوقوف . تسلل خدر إلى يديه وساقيه . بدا له أنه يقف فى الهواء ، أو أن قدميه انفصلتا عن جسده ، فهو لا يقوى على الحركة . دارت به الدنيا ، وغامت المرئيات ، واضطربت ، وتلاشت . حل سواد ، كأن الدنيا أظلمت ، أو أنه فقد الرؤية ..

ميز فى غبشة الرؤية رجلاً لم يسبق له رؤيته . وجه يوحى بالألفة ، وبشرة قمحية صافية ، وعينان لوزيتان شديدتا الالتماع ، وابتسامة رائقة . له عود نحيل فاره . يرتدى قميصاً مشجر اللون ، ينفتح عن صدر مشعث الشعر ..

ــ من فعل بك هذا ؟..

أظهر ملامح متألمة :

ــ ماذا فعلتم يا أولاد الكلب ؟!

واتجه إليه بنظرة مشفقة :

ــ لماذا لا تعطيهم ما يطلبون وتبعد عن هذا المكان ؟.

انتزع الكلمات :

ــ يريدون اعترافاً بجريمة لا أعرفها ..

دفع إليه بسيجارة

ــ لا أدخن !..

رسم على شفتيه ابتسامة مجاملة :

ــ تفعل خيراً .. السجاير مضرّة بالصحة ..

وقال فى صوت أملس :

ــ اعترف لتنقذ نفسك ..

قال محمد الأبيض :

ـــ لكننى لم أفعل ما أعترف به ..

همس الضابط بنبرة تمثيلية :

ـــ أحدهم أغراك بوضع القنبلة داخل السنترال .. قل لهم اسمه .. وعد إلى بيتك بالسلامة ..

ـــ لكننى لا أعرف شيئاً عن تلك القنبلة ..

تململ الضابط فى جلسته :

ـــ أنت هكذا تعقد الأمور ..

وداخل صوته نبرة غضب :

ـــ من حرضك على وضع الحقيبة ..

أردف لدهشته المتسائلة :

ـــ دخلت سنترال المنشية عصر أول أمس .. تركت قنبلة فى كابينة التليفون .. وانصرفت ..

وأمسك بكتفيه ، ودنا بوجهه منه :

ـــ بعد أن تتكلم لن نكون بحاجة إليك .. من يهمنا هم المحرضون !..

* * *

حل سكون إلا من صرير الأبواب الحديدية تفتح وتغلق . قد يعلو صوت آمر ، أو شخطة ، أو صرخة .. ثم يعود السكون ..

اقتحم الضوء الحجرة بانفراجة الباب ..

وقف الرجل يتأمله ، وثمة التماع غريب فى عينيه . ليس غضباً ولا حقداً ولا كراهية . لم يكن رآه من قبل ، ولا عرف وظيفته . البدلة الصيفى مما يرتديه الناس فى الشوارع ، وفى أماكن العمل ، وسحنته لا تشى بسن محددة ، ولا وظيفة عالية ، أو بسيطة . يمكن أن يتصوره ضابطاً أو جندياً ، أو موظفاً كبيراً أو صغيراً . بدت النظرة الملتمعة كأنها تلهف لرؤيته ، كأن الانتظار أتعبه حتى قدموا به إليه . اقترب منه حتى شم رائحة السجاير فى فمه . قبل أن يعد نفسه للإجابة عن الأسئلة التى توقع أن الرجل سيواجهه بها : الإسم ، والوظيفة ، وعنوان البيت والعمل ، رفع الرجل ذراعه إلى أعلى ، ثم هوى براحته على وجهه . لم يتدبر جيداً وضع الصفعة . أطارت النظارة الطبية ، وسرت بالألم فى الجبهة والعينين . أقعى على ركبتيه ، يبحث عن النظارة . لحقته ركلة فى مؤخرته . سقط وقام . أسقطته ركلة ثانية .

قام . سقط . تكور حول نفسه . أحاط وجهه بساعديه . تهاوى ذراعاه ، بعد أن تهاوى جسده كله . رفعه الرجل ، وأدنى الشرر من عينيه . أخفى وجهه بتلقائية . سدد الرجل ــ فى اللحظة التالية ــ لكمة قوية إلى البطن المكشوفة . لحقه وهو يتهاوى بقبضته فى رأسه . لاحظ ترنحه ، فضربه بركبته أسفل بطنه . مال على تكوره . تلاحقت الضربات واللطمات والركلات ، لا تقصد موضعاً فى الجسد ، لكنها تتجه إلى الجسد كله ، لا يشغلها الموضع الذى يسبب الأذى ، أو الذى يعنى الموت . مجرد أن تصيب الجسد بما يؤلمه ، بما يدفعه إلى الاعتراف . وضع يديه خلف ظهره ، وجمع ساقيه على بعضهما ، وأوثقهما بحبل . أحس أنه عاجز عن فعل شئ . حتى الصراخ لم يعد يشغله . سرت الضربات بما يشبه الغثيان فى بطنه ، وبدا كل شئ سخيفاً وبلا معنى . لم يعد يشعر بأى ألم . لا الضربات ولا الركلات ولا الصفعات . اختلطت المرئيات ، وتشابكت ، ثم اسودت الدنيا تماماً . حل ظلام ، وخدر ، ورؤى قاسية ..

كانت الآهة الطويلة هى آخر ما يذكره ..

***

قال محمد الأبيض :

ــ أقسى ما على النفس عندما تتلقى ضربة ، يعرف من وجهها إليك أنك لا تملك الرد عليه !..

كنت قد اعتدت التردد على بيت محمد الأبيض . ألفت الحارة الترابية ، والدرابزين الخشبى المتآكل ، والكنبة الاستامبولى التى تجلس عليها الأم فى مواجهة الباب ، والحجرة المطلة على مسجد الموازينى ، استندت إلى جدرانها أرفف مليئة بالكتب . وإلى الجانب سجادة الصلاة ، مفرودة ، أو مطوية . كنت أسأله عن الكتب التى ينصحنى بقراءتها . يشير إلى كتاب أو اثنين ، وربما أعارنى ما أشار علىّ بقراءته . وفتحت الثلاجة القائمة فى زاوية الصالة ــ يوماً ــ وتناولت زجاجة ماء ..

ثم وهو يثبت نظارته الطبية على أرنبة أنفه :

ــ مع ذلك فإنى لم أكن أخشى الضرب .. كنت أخشى الإهانة ..

حدجته بنظرة متسائلة :

ــ وما الفرق ؟

همس ليخفى التوتر فى صوته :

ـــ آلمتنى الشتائم والبصقات أكثر من الضرب !

لاحظ تأملى لخطواته المتعثرة :

ـــ حتى الآن .. أنا فى مرحلة تليين ..

استطرد للدهشة فى عينى :

ـــ أعوّد ساقى على المشى بعد أن نسيت الحركة ..

***

كانت لحظات الراحة الوحيدة هى لحظات الذهاب إلى دورة المياه ، لكنها لا تطول ، ولا تتكرر . مرة واحدة فى النهار . وكان ينتظر شيئاً ما خارج الزنزانة المغلقة . يفتح الباب الحديدى ، ويدخل من لا يعرفه . لعله آخر من سيراه ، ثم ينتهى كل شئ . لا قراءة ولا فسحة ولا زيارة ولا أى شئ . مجرد أن يظل فى الغرفة المصمتة ، المظلمة ، يستعيد ما جرى ، ويحاول التوقع . ينفذ الأوامر دون وعى ، وبلا تدبير . لا يشعر أنه نفّذ الفعل إلاّ بعد أن يتمّه بالفعل ..

لكن بطء الزمن أرهقه ، ربما أشد من التعذيب الذى سبق سقوطه فى الإغماء . أهم ما كان يثيره إنه لم يعد يعرف ما فى الخارج ، فى البيت ، أو الشركة ، لا أحداث ، ولا تاريخ ، و لا ذكريات ، ولا توقعات ، وإن تذكر أنه ترك

أشياء على مكتبه : ورقتين من قصة قصيرة بدأ فى كتابتها .. ملاحظات من كتاب " نظرية الرواية " لرينيه ويلك .. رسالة إلى مجلة سعودية ..

الحجرة المغلقة جزيرة . لو أنهم أطفأوا اللمبة يتعلم قياس زمن اليوم بمراقبة تحول ضوء الشمس . النافذة الصغيرة ذات القضبان الحديدية أعلى الجدار المطل على الطريق ، طريق صاخبة مزدحمة ، يشى بذلك تصاعد الصخب المتلاغط من أسفل . لم تعد صورة الحياة فى الخارج تومض داخله إلاّ نادراً . كلمة عابرة تستدعى ذكرى قريبة وبعيدة ، كأنها دوائر الماء التى يحدثها سقوط حصاة ، تتسع ، وتتسع ، ثم تغيب . حين صحبوه ، وأودعوه الحجرة الزانزانة ، انقطعت صلته بالحياة فجأة . أين رانيا الآن ؟.. هل طال انتظارها له ؟ متى أخذت قرار السؤال عنه ، أو العودة غاضبة ؟.. ترك داخل درج المكتب الأيسر بيانات الذمة المالية ، أزمع أن يملأها ، ويسلمها ، عندما يصل إلى المصلحة فى اليوم التالى : الدوسيهات المفتوحة على مكتبه .. إيصال مقدم حجز الثلاجة .. فاتورة هيئة التليفونات بالمبالغ المطلوبة لتركيب التليفون . قال لزميل العمل : غدا

أنتظرك للفرجة على مباراة الاتحاد . هل أقيمت المباراة ؟ وهل ذهب الزميل ؟ حتى وجه أمه الذى لم يكن يفارقه بدا ضبابياً ، أو غائب الملامح ، وإذا استعاده لمناسبة ما ، فإن الملامح لا تكون واضحة . ينتابه الشك أنه إذا غادر السجن ، والتقى بها ، فسيعرفها ، وتعرفه..

ثم توقف الزمن ، أو أنه اختلط . لم يعد يدرى النهار من الليل . اللمبة الوحيدة مضاءة على الدوام ، فلا يستطيع تبين ما إذا كانت الدنيا من النافذة ليلاً ، أم أنها تحيا النهار ؟.. لم يعد ثمة أحداث ولا تاريخ ولا ذكريات ولا توقعات . حطت عليه بلادة ، لا يشغله ما قبل ولا ما بعد ، لحظة طويلة ، متصلة ، يحيا فيها كآلة ، لا إرادة ، لا انفعال ، لا احتجاج ، لا تساؤل . حتى الكلمات لا يتثبت من مفرداتها ومعانيها . مجرد أن يجيب عن أسئلة لابد أن يجيب عنها . ربما تتوه بقية العبارة ، فيسكت ..

***

ذهل لتبينه إن الأشهر التى تصور إنه أمضاها داخل الحجرة المغلقة لم تزد عن ستة أيام . ستة أيام امتدت ، واستطالت . بدت زمنا متصلاً ..

قال الضابط :

ــ ستخرج من هنا إلى بيتك ..

ثم وهو يضغط على نهاية الكلمات :

ــ استضفناك فترة .. أرجو ألا تتحدث عنها مع أحد ..

وعلا صوته بلهجة مهددة :

ــ قد لا نتركك إذا استضفناك ثانية ..

تقلصت ملامح وجهه :

ــ فصلت من عملى ..

قال الضابط :

ــ تخصصك يتيح لك أعمالاً أخرى ..

مدفوعاً بإحساس الحصار :

ــ أريد شهادة بأنى كنت ..

وازدرد ريقه :

ــ هنا ..

قال الضابط وهو يهز يده :

ــ صعب ..

ــ لماذا ؟..

أغمض عينيه :

ــ لأن فترة التحقيق معك غير مثبتة فى السجلات ..

فى لهفة :

ــ لم أكن متهماً إذن ؟..

قال الضابط فى صوته المتلكئ :

ــ كنت متهماً .. فلما ثبتت براءتك أخلينا سبيلك ..

وأخرسه بنظرة باترة :

ــ هذا كل شئ ..

وأشار بيده ، فسكت .

***

قال لى محمد الأبيض :

ــ أتعرف يا أستاذ عادل لماذا لم أشعر باليأس ؟..

ورفع عينيه فى تثاقل :

ــ لأنى كنت أقرأ ..

وشردت نظرته . استقرت على مكان غير مرئى فى المدى البعيد ..

ــ حتى عندما منعت من القراءة .. كنت أستعيد ما أحفظه من قصائد ..

ودارى ابتسامة شاحبة :

ــ وكنت أغنى أحياناً !..

قلت :

ــ قرأت لمالرو أن الحوار بين الإنسان والتعذيب أعمق من الحوار بين الإنسان والموت ..

لاحظت تكور قبضته :

ــ هذا صحيح .. فأنت لا تدرى ما يحمله الموت .. لكنك تعانى قسوة التعذيب ..

وداخل الابتسامة حزن واضح :

ــ ألفت ــ فيما بعد ــ استقبال الزوار المجهولين . أدعوهم للدخول . أعرض عليهم شاياً أو قهوة . أستأذنهم فى ارتداء ملابسى ، ثم أصحبهم فى هدوء ..

وأطرق لحظات ، ثم رفع رأسه وهو يهزها فى عصبية:

ــ كان اعتقالى هو المدخل لتطورات الأحداث التالية ..

والتمعت عيناه بوميض التذكر :

ــ لم تكن السياسة تشغلنى . لو أنى ظللت فى عملى ربما لم أكن أتجه إلى الصحافة . بدت كل الطرق ــ بعد خروجى من السجن ــ مسدودة ..

وأعاد النظر إلى ما لم أتبينه :

ــ توهمت أن الأمور تغيرت بعد تغير الظروف ، لكننى كنت متوهماً بالفعل ..

أعدت تأمله ..

لم أتصور أن هذا الإنسان النحيل ، الهامس الصوت ، البطىء التصرفات ، يتحمل كل ما رواه لى : الاعتقال والتحقيقات والتعذيب . أذهلنى أنه روى ما حدث فى عفوية وبساطة ..

كلمنى عن ظاهرة ــ لم يألفها ــ يواجهها فى كل صلاة . تطالعه صور الجنود والضباط والحجرة المغلقة والتحقيقات وعمليات التعذيب . ينهى الصلاة : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . يكبّر ثانية ، لكن الصور تعاود الإلحاح فى الركوع والسجود . يكمل الصلاة ثانية ، أو يخرج منها ، ويعيد التكبير ..

قلت دون تدبر :

ــ الا ترى أنهم يستطيعون مراقبتك فى الندوة ؟..

مط شفته السفلى دلالة عدم الفهم :

ــ كيف ؟..

ـــ يدسّون من يراقبك ..

شرد بنظرته :

ـــ لا أتصور !.. كل زملاء الندوة أصدقائى ..

ووسط الهواء براحة يده :

ـــ لا أتصور !.. لا أتصور !..

أحسست بسخف السؤال ، وإن تمنيت لو أن محمد الأبيض فطن إلى خطر وجوده فى الندوة . الأسماء التى يجدونها فى جيب السجين السياسى يعتقلون أصحابها ، حتى لو لم يكن لهم نشاط ما .. فماذا عن الذين يقضى الأوقات معهم ؟..

لو أنه غاب عن المينا الشرقية ، ولم يشارك فى الندوة ..

بذلت جهداً ، فلا يبين انفعالى فى ملامحى ..

ثم فضلت أن أصمت .

— ٦ —

سوق راتب ..

لا أخطئ رائحته : اختلاط الشواء والسمك والخضروات والفاكهة واللحم الضانى والكبد والسجق والرنجة وأم الخلول والمكسرات والماء العطن . البضائع المصفوفة داخل الدكاكين ، وعلى الرصيف ، تمتد فلا تترك إلا منفذاً ضيقاً يتحرك فيه المارة . القفف والمقاطف وأقفاص السمان والدجاج والحمام والبط . طوابق البيوت العالية ، المزدانة بالنقوش والمقرنصات . لافتات التوكيلات الملاحية وشركات النقل والتصدير والاستيراد . من وراء الواجهات الزجاجية تصف أطباق الصينى والأدوات المنزلية وعلب الحلوى . نداءات الباعة واختلاط أصوات أجهزة الراديو والكاسيت ..

قلت لأسامة صابر :

ــ تعجبنى شطارتك فى الفصال ..

وهى تغمز بجانب عينها :

ــ لو تزوجت .. كنت سأصبح زوجة رائعة ..

لم أكن أعرف إن كانت متزوجة ، أو أنها مطلقة ، أو لم تتزوج بعد ..

اتجهت إليها بنظرة ود :

ــ لماذا لا تتزوجين ؟..

بحلقت عيناها :

ــ وما يدفعنى إلى تقييد نفسى بموافقة الزوج على سفرى إلى الخارج ؟..

وأنا أشجعها بإيماءة على مواصلة الكلام :

ــ سبب آخر ؟..

تنهدت :

ــ وأسباب أخرى ..

ــ مثل ؟..

فى ابتسامة متكلفة :

ــ أحتفظ بها لنفسى ..

مدفوعاً بجرأة لم أتدبرها :

ـــ مثلما أنه من الصعب أن يحب الرجل كل النساء ، فمن الصعب أن تحب المرأة كل الرجال ..

عقدت حاجبيها :

ـــ ومن قال إنى أريد ذلك ؟..

ثم وهى تنقر بإصبعها على رأسها :

ـــ أنا لا أحب ولا أكره .. ولكنى أصادق الرجل الذى يروق لى !..

قلت متشجعاً :

ـــ تبدين رجلاً فى كلامك وتصرفاتك ؟..

أطلقت ضحكة مائعة لم تتدبر الصخب من حولنا :

ـــ أنت لم تجرّبنى فى السرير !..

كانت تميل إلى الأناقة ، وتبدّل ملابسها ، وإن مالت إلى ارتداء البنطلون والبلوزة ، أو البدلة الكاملة . لا أذكر أنى رأيتها فى فستان ولا جوبة وبلوزة ، ولا حتى تايير . تفضل البدل ، وإن جاء تفصيلها على قد مقاييسها كأنثى . كانت ترتدى بنطلوناً أسود ، وبلوزة قطنية بيضاء ، وحذاء بدون كعب . أحاطت عنقها بإيشارب من الحرير ، تدلت

نهايته المعقوصة على جانب الكتف ، وعلقت على كتفها حقيبة من القماش . وجهها رائق ، يخلو من المساحيق ، وثمة خصلة شعر تهدلت على جبهتها ، تهتز كلما حركت رأسها ..

قلت بلهجة حاولت أن تكون ذات دلالة :

ــ من أين ؟ وإلى أين ؟..

أشارت ناحية شارع السبع بنات :

ــ أنا أعمل فى هيئة الكهرباء ..

ــ مهندسة ؟..

رفت على شفتيها ابتسامة باهتة :

ــ مجرد موظفة إدارية صغيرة ..

وفاجأتنى بالقول :

ــ أدعوك إلى مشروب فى أقرب محل .. هل توافق ؟.

* * *

لم يكن فى بالى أن أبتعد بصلاتى عن المقهى . تبدأ الندوة ، وتنتهى ، فينتهى كل شئ . تقف الصلات فى " المينا الشرقية " لا تجاوزها إلى الشوارع ، ولا البيوت ، ولا

الأماكن العامة الأخرى . ربما ألتقى بزميل أكتفى بهزة من رأسى ، ويكتفى بهزة مماثلة . أعرف الإسم وما يبدعه ، ولا أعرف الكلية أو العمل ، ولا حتى الحى الذى يقيم فيه ..

صدقت أسامة صابر فى أنها لم تجلس ــ يوماً ــ للحكى . لم تكن تشير إلى ظروفها الأسرية . إذا سئلت أجابت بابتسامة صامتة ، وترفض أن يرافقها أحد بعد انفضاض الندوة . ربما تناثرت ــ عفو الخاطر ــ ملاحظات وذكريات . لا تروى من البداية ، ولا يكر الخيط إلى نهايته . لكنها ــ فى هذه اللحظة ــ بدت على استعداد للبوح ، للفضفضة ..

* * *

يضايقها أن تظل الفتاة فى موقف المنتظر . يجئ الرجل أو لا يجئ . لماذا الرجل هو الذى يقول الكلمة الأولى ؟

ــ سمانى أبى أسامة لأنى كنت أول خلفته .. وكان يتمنى ولداً !..

وتهدج صوتها :

ــ كان الشرود يأخذ أمى . أرجعه إلى أمنيات أبى فى أن يرزقهما الله بالولد ..

ثم وهى تعدل حقيبة يدها على كتفها :

ــ قلت وأنا أداعب ذقنه : أنا أفضل من مليون ولد .. فقال فى تأثر : صحيح .. لكنك ستحملين اسم زوجك .. أما الولد فيحمل اسمى !..

ظللت صامتاً ، وإن أومأت إليها لكى تواصل الكلام ..

قالت فى تهدج صوتها :

ــ حين جاء الأولاد .. عدت بنتاً مهملة ..

أضافت للدهشة فى ملامحى :

ــ لولا وفاته المفاجئة كنت سأتوقف عن التعليم وأتزوج وأنا طفلة ..

اصطنعت ابتسامة :

ــ تتمنين لو أنك ذكر .. ولد ..

هزت رأسها بعصبية :

ــ لم أتصور نفسى فى غير ما أنا هى .. لكننى أرفض السيادة الذكورية الكاذبة !..

ناوشنى السؤال : من تحب أسامة ؟..

لم تحدثنى عن تجارب لها فى الحب ، ولا إن كانت قد أحبت أصلاً . قاومت فضولى فى أن أتعرف إلى الجانب الذى ربما تخفيه فى حياتها ..

أثق إنها لابد أن تكون محبّة محبوبة ..

فمن تحب ، ومن يحبها ؟ ..

– ٧ –

خرجت من صالة سينما أمير ـــ أثناء عرض الفيلم ـــ إلى البهو الخارجى . كنت فى حاجة إلى تدخين سيجارة . كان البهو خالياً تماماً ، فيما عدا عامل يرتب البوفيه فى نهاية المكان ..

ضغطت بإصبعى على السيجارة فى الطفاية ، واتجهت إلى الصالة :

ـــ أستاذ عادل ..

قورة إدريس !.. هل هو ؟.. ما الذى أوقفه فى البهو ؟.. لابد أنه عرف بدخولى السينما ، فهو يتبعنى ..

رمقته بارتياب : فى وجهه طفولة تخفى حقيقة سنه . يتدلى شعره على قفاه ، وعيناه قلقتان لا تكادان تستقران على شئ . إذا تكلم ، اتسع منخاراه بصورة لافتة . يرتدى بنطلوناً من الجينز ، وقميصاً من الصوف ، أسود ، يكشف عن صدره .

لم أكن أتصور أن تلاحقنى فى هذا المكان عين ترصد تصرفاتى . اخترقتنى النظرة . أثارت فى داخلى توجساً غامضاً ..

غابت اللحظات التى أستطيع أن أغمض عينى فيها ، وأسترخى . أدرك أن عينين تراقباننى . لا أعرف صاحبهما ، لكننى أثق أنه موجود . واحد من الذين يشكّلون الندوة . ينصت ، ويتابع ، ويسأل ، ويناقش ، وربما قرأ كتاباً له ، لكن المراقبة هى المهمة التى يجلس من أجلها . يرى ما لا نراه ، ويكتب حسب فهمه لما نقول ، ووعيه ..

أهملت التخمين أن الشاب ربما التفت ناحيتى ــ بعفوية ــ فرآنى . هل يفطن إلى أنى أقتفى خطواته ؟.. وبماذا أواجه شكوكى ، أو يقينى ، من أنه يتبعنى ؟..

يشقينى إنى أكتم صدرى على سر لا يعرفه غيرى . لا يعرفه حتى أمى ، ولا محمد الأبيض ، ولا زملاء الندوة ، أو زملاء الجريدة . أعانى ــ بمفردى ــ لحظات التوتر والقلق والخوف وترقب المجهول ..

راعتنى شخصيته الانفعالية . يهمه أن يقرأ ما كتبه . يعطونه إنصاتهم وتعليقاتهم . إمساكه بالورقات فى يده ،

وتلهّفه ، يشيان بانعزاله عما نقرأه أو نناقشه . يرفع يده ليلقى قصيدة ، فيتبدل حاله . يخلى ملامحه للهفة ، وترقب انتهاء القراءة والمناقشات . أثق أنى لو سألته فيما استمع إليه فسيصيبه حرج . هو يجلس فى الندوة وإن لم يتابعها . تحول إلى جزيرة منعزلة همها أن تبوح بما تحمله ، أن ننصت ، ويقرأ قصيدته ، ونناقشه . يتعجل ــ وإن لم يبح ــ مايقرأ ، وما يعقبه من مناقشات ، حتى يأتى دوره . يتوقف فى أثناء القراءة ليوضح ما يقصده من معان ربما لم نفطن إليها ، وربما شرح أسباب كتابة القصيدة . ألاحظ أنه بعد أن تنتهى مناقشة ما قرأه ، يعطى انتباهه للنصوص التالية ، ويشارك فى إبداء الملاحظات . يعلو نقده بالملاحظات ، وبالقسوة . ربما استأذن فى الانصراف بعد أن تفرغ الندوة من مناقشة ما قرأ . يتميز عن زملاء الندوة فى أنه نشر ثلاث قصائد فى جريدة " السفير " ، ثم قصيدتين فى " أدب ونقد " و " إبداع " . غالب الشعور ــ أتصور ــ بأنه ينتمى إلينا بالصداقة ، وينتمى إلى صحف القاهرة بإمكانية النشر ..

حرصت على إيقاع الخطوات ، وعلى المسافة بيننا . أخفى جسدى ــ ما أمكن ــ فى زحام الطريق ..

ملت وراءه من شارع الأهرام إلى شارع الغرفة التجارية ، ومنه إلى شارع البورصة القديمة ، ثم ميدان المنشية . قفزت فى الاوتوبيس الذى صعد إليه دون أن أضع حساباً لشئ . قفزت وراءه فى الشارع الصاعد المتجه إلى بولكلى . وقفت ـــ يفصل بيننا الترام ـــ فى الناحية المقابلة . البيت رقم ١١٠ شارع عبد السلام عارف . صعد الدرجات الست ، ومضى إلى الشقة فى الطابق الأرضى . إلى اليسار سلم البيت . لم أتأكد من ملامح الوجه الذى فتح الباب ، ثم أغلقه ، وإن تصورت أنه مألوف ، وأنى ربما أعرف صاحبته . أهملت ـــ فى اللحظة التالية ـــ متابعته ، وانشغلت بالتعرف إلى هذه التى أعرفها داخل الشقة . كان قد مضى ـــ بخطوات سريعة ـــ إلى الشارع الجانبى ، ناحية طريق الحرية . درت حول طريق الترام من المحطة . اتجهت إلى داخل البيت ، تدفعنى القوة التى لا تضع حساباً لأى شئ ..

رمقتنى عينا البواب بتساؤل وفضول . وضعت إصبعى على جرس الباب قبل أن يسأل ..

ـــ أستاذ عادل مهدى ..

طال وقوفى بالارتباك والصمت . أردفت نيفين عصام وهى تفسح الطريق :

ــ تفضل ..

الشقة ذات جدران مرتفعة . الصالة تتوسطها طاولة مربعة ، حولها أربعة كراسى ، ولصق الجدار كرسيان . تفضى ــ فى المواجهة ــ إلى حجرة صالون ، ومن اليمين إلى طرقة ، تنتهى ــ ربما ــ إلى حجرة نوم ، ومن اليسار تبين الإضاءة الساقطة من النافذة الخلفية ، فى حجرة ينفرج بها الباب الموارب عن سرير خشبى ، وكومودينو صغير ، فوقه أباجورة وبضعة كتب ..

بدا لى المطبخ والحمام ، فى جلستى على المقعد المذهب بأركان الصالون ، مقابلين لحجرة النوم ..

حوائط الصالون مزينة بالورق المزخرف ، وتتدلى من سقفها نجفة هائلة ، بها الكثير من اللمبات ، وإن أضيئت لمبتان فقط . وثمة ستائر حمراء بهت لونها ..

بماذا أبرر ما فعلت ؟.. كيف عرفت أنها تقيم فى هذه الشقة ؟.. ولماذا جئت ؟..

ــ لم تعودى تأتين إلى الندوة ..

كنت أرتاح إليها : ملامحها المنمنمة ، وجهها الباسم ، شعرها الحنطى ، عقصته فى ضفيرتين أسدلتهما على صدرها ، بشرتها الناعمة ، الصافية ، عينيها الخضراوين بلون الحقول ، عفويتها فى إلقاء الأسئلة والمناقشة . وكانت إذا ابتسمت توضحت غمازتان فى خديها ..

وغالبت الارتباك :

ـــ سألت قورة إدريس .. قال إنك متوعكة ..

كذبة يسهل تصديقها !..

فاجأتنى بالسؤال :

ـــ هل أعطاك العنوان ؟..

قلت فى ارتباكى :

ـــ كان قد غادر الندوة .. فحصلت على العنوان من الأصدقاء ..

بدا لى المضى فى الكذب طريقاً وحيدة . تلفت حولى ، وتساءلت :

ـــ أين قورة ؟..

أغمضت عينيها ، وهزت رأسها :

ـــ لم نعد زوجين !..

كتمت القول بأن خطواته قادتنى إلى الشقة . أظهرت القلق :

ــ لماذا ؟..

ــ أنا وقورة شخصيتان مختلفتان ..

قلت فى لهجة مشاركة :

ــ بديهى أن تكون شخصية أحد الزوجين مختلفة عن الآخر .. البشر يختلفون ..

اختلجت شفتاها :

ــ ليس هذا ما أقصده .. لقورة أفكار وتصرفات لا أومن بها ..

ــ مثل ؟..

فى صوت محترق :

ــ الأمثلة كثيرة ..

* * *

عندما فتحت الباب ، فوجئت به واقفاً وراء فتاة لم تعرفها ، ولا رأتها من قبل . قبل أن تسأل ، أو تتكلم ، كان قد دفع الفتاة ــ بيد مترفقة ــ إلى الداخل . قال للدهشة الغاضبة فى عينيها :

ــ ألم أعطك الحرية فى أن تفعلى ما تريدين ؟..

ثم وهو يمسح حبات عرق نبتت فى جبهته :

ــ إذا كنت أعطى الحرية لنفسى .. فأنا لا أرفض أن تكونى حرة ..

ملأ الغضب ملامحها :

ــ ماذا تقصد ؟..

كان قد حدثها عن الكتاب والمسرحية والفيلم وأحلام الكتابة والوظيفة ذات المستقبل فى شركة للسياحة . قال : إن الذهن هو ما يعنيه وليس أسفل البطن ..

ــ لى صداقاتى .. ومن حقك أن تكون لك صداقاتك ..

ــ رجال أم نساء ؟..

ــ لا فرق !..

من بين أسنانها :

ــ هذه سفالة !..

عاد إلى الشقة بعد أن أوصل المرأة إلى المحطة . لم يجد نيفين . وكان كل شئ على حاله . اكتشف غياب حقيبة متوسطة للسفر . توقع عودتها أو اتصالها ، وتوقع أن تأتى

إلى الندوة ، فيتكلمان بعيداً عن أبويها . تيقن أنها ستعود إلى بيت عبد السلام عارف ، فبدل طريقه ــ بعد الندوة ــ إليه..

أدركت أن المستحيل حياتها معه . لم تعد تطيقه ، ولا تتحمل السكوت عن تصرفاته . طلبت الطلاق ، فرفض :

ــ هذا حق الرجل .

ـ ٨ ـ

ترامت الأصوات من وراء قهوة " المينا الشرقية " كالهمس ، أو كالفحيح . لم أتبين مصدرها على وجه التحديد . ربما شارع محمد كريم ، أو قهوة الريحانة فى الخلف . ولعلها شقة تطل على شارع الأهرام . تعالت . اختلط فيها الصراخ بالحشرجة بالأنين ، وتناثرت فى الظلمة أشكال هلامية ، اختلطت ملامحها أو غابت ، وبدت أشكال وتكوينات ، ثم تضاءلت وتوارت فى العتمة . تداخلت غربان سود مع أسراب النورس فى هبوطها من السماء ، وتدلت الكرابيج والمشانق والأجسام من أسقف غير مرئية ، وتدلى سعف النخيل ، فغطس فى المياه الضحلة ، وسرت التقرحات فى أنف الرجل وشفتيه ، وتسلى الطفل بمعابثة اللعبة حتى خنقها ، وحدقت العينان تومضان بالشرر ، وامتدت الأيدى الطويلة تلامس وجهى ، وانبثق الدم من الجدران المصمتة .

جريت بآخر ما عندى حتى تلاشى وقع الأقدام المطاردة . هدنى التعب ، فلم أعد أقوى على السير خطوة واحدة . ارتميت على الحائط ، أبكى وأبكى . ومض القمر من خلال السحب المتكاثفة ، ثم اختفى ، وتصاعدت المئذنة ، اخترقت تكاثف السحب ، فنقر المطر النافذة برخات متوالية . تداخلت أصوات هسيس النخيل والأذان وصفير البواخر فى الميناء الغربية . ارتطمت الأمواج بالكورنيش الحجرى ، وكنست مظلات الطريق ، وتلاحقت أقدام السائرين على بلاط الرصيف . انفجر المصباح ، فحل الظلام . قفزت ــ بتلقائية ــ إلى الرصيف . مرقت السيارة وبداخلها كلاب تنبح . اختفيت فى بئر ، أو قبو ، موضع لم أدرك ملامحه . قفز الجسم ذو الشعر الكثيف على ظهرى . أحاط صدرى بساعديه ، واعتصرنى . خذلنى الصراخ فى هول اجتذاب الدوامة :

ــ من ؟..

بدا الإشفاق على وجه أمى :

ــ كنت تصرخ !..

قلت متسائلاً :

ـــ أنت أيقظتنى ؟..

ـــ صحوت على صراخك فخفت عليك ..

وتحيّر الدمع فى عينيها :

ـــ كابوس ؟!..

ـــ رأيت أشياء مخيفة .. لكننى لا أتذكرها ..

كنت أتقلب فى الفراش . يبتعد النوم بتوالى الصور والملامح والوقائع والأمكنة . أغفو . أنهض فزعاً . أضغط زر النور . أعيد النظر حولى . أصيخ السمع للأصوات المترامية من الطريق . وكنت أتأمل الزوايا والأركان والأبواب المغلقة وفى ظل الشجر ..

زوت عينيها :

ـــ هل تستعيد الحادثة السخيفة ..

وأشارت بيدها :

ـــ القديمة ؟..

وقالت لنظرة الدهشة المتسائلة :

ـــ خيانة امرأة ليست نهاية الدنيا ..

هى التى عثرت على الرسالة فى داخل الحقيبة المهملة : " زوجنى أهلى لمن لا أحبه ، لكننى سأظل أحبك " . كان

قد مضى ثلاثة أيام على الزفاف ، فلم تنشأ بيننا ذكريات . تلقيت الصدمة باعتبارها كذلك ..

لم أكن التقيت بها ، قبل أن أجلس إليها فى حجرة الصالون المطلة على طريق الكورنيش . قالت أمى : هى بنت ناس طيبين ، فلا تتردد !. فسرت صمتها ، وأجوبتها المقتضبة على الأسئلة التى أردت بها مجرد الأخذ والرد ، بأنها خجول ومؤدبة . أهملت ــ فى أثناء الخطبة ــ ما لاحظته من عبارات وتصرفات تحتاج إلى تفسير . أرجعت ملاحظاتى إلى العادى والمألوف ، وأن عدم الفهم ربما يفرض نفسه فى بداية الخطوات ..

ــ كان يجب أن تطلقها قبل أن تطلب هى ذلك ..

أغمضت عينى ، أتوه فى عالم بلا أفق :

ــ تصورت إنها خواطر سخيفة ستحتفظ بها لنفسها ..

وهى تضرب الهواء بقبضة يدها :

ــ التردد !.. مرضك المزمن !..

غابت عن الذاكرة ــ عقب الطلاق ــ بتوالى مرور الأيام ، وإن اعتبرت الزواج مشروعاً مؤجلاً ..

غالبت الارتباك برفع صوتى :

ــ لا شئ مما يدور فى بالك .. أفكر فى مشغوليات العمل ..

ثم وأنا أضغط براحتى على ذراعها :

ــ إذا وجدت بنت الحلال فلن أتردد فى التقدم إليها ..

فى حماس طفولى :

ــ أترك لى هذه المسألة .. سأختار لك أجمل بنت فى الإسكندرية .. وفى مصر كلها ..

وربتت صدرى براحتها :

ــ أنت عادل مهدى .. لا تليق بك إلاّ بنت أختارها بنفسى !..

حين اهتزت الشجرة على الرصيف المقابل للكورنيش ، خمنت أن أحداً يقف وراءها . المجهول الغائب الملامح ، أتوقع ظهوره . لا أدرى ماذا يفعل ، ولا كيف أواجهه . بدا المكان خالياً ، فخفت من الوساوس . أعجز عن مواجهة التآمر ، وما يخيف ، وما لا أتوقعه . أتبلد تماماً ، فلا أملك التصرف . أبدو عاجزاً عن فهم بواعث التصرفات . لماذا فعل ما فعل ؟.. أنا لم أتصرف حياله بشبهة أذى ، فلم يبادرنى بالأذى ؟..

غمرنى شعور أنى أجر إلى طريق ضبابية ، أو مظلمة ، لا نهاية لها . يترصد لى فى ظلمتها من لا أتوقعهم ، ولا أعرفهم ، وإن أعددت نفسى للقسوة ، بلا ملامح محددة .

أين هى العين التى تترصدنى ، وتتابعنى . تلاحظ تصرفاتى ، وتنصت إلى أقوالى ، وتكتب التقارير ؟..

ثمة هاجس يهمس لى : ابتعد عن هذا العالم .. أتركه ، وعش حياتك !..

تغلّب الفضول حتى على القلق . أريد أن أعرف لمجرد أن ذلك يشغلنى . لا أهمية لتوقعات كنت أتصورها قاسية . ما يهمنى أن أعرف : هل يراقب الندوة أحد ؟ ومن هو ؟ وماذا يكتب ؟..

سئمت الانتظار والتوقع . أحسست بأن تفكيرى يجمد ، وأن مشاعرى تتبلد ..

تلفت فاروق أبو سليم حوله ، ربما ليتثبت من اتجاه النظرات ..

ـــ الولية عواطف الراقصة بكازينو البجعة .. تعرفونها ؟.. نشرت عنها أخباراً تكفى لملء كتاب . وافقت أخيراً على أن تزورنى فى الشقة . تصورت أنى إذا أفرغت قبل أن

أنفرد بها ، فسأطيل العلاقة . لكن المسائل كسفتنى وظلت نائمة ..

النساء محور كلماته : الصداقات ، والعلاقات ، والمآزق التى يواجهها . لم يكن يتحفظ فى عباراته ، ولا يتردد فى إطلاق أقذع الشتائم ضد محدثه فى جد أو هزار . إذا لم يرقه كلام محدثه ، أو تصرفه ، فاجأه بشخرة من داخل حلقه ..

عدل جسمه فوق الكرسى . جسده النحيل ، القصير ، لا يتفق مع ضخامة رأسه . له جبهة عريضة ، وأنف مقوس كمنقار . تناثر فى وجهه حفر جدرى ، واختلط فى أسنانه السواد والصفرة . إذا تكلم امتلأ فمه بالكلام . وكان يعتز بأنه لم يقرأ فى حياته سوى الكتب المدرسية ..

أغمض عينيه كالمتأمل :

ــ أعترف أن المرأة حاولت .. لكن النائم رفض الاستيقاظ !..

ثم فى صوت متثائب :

ــ لم أجد ما أرد به عليها ، وهى ترسم ابتسامة سخرية واسعة على شفتيها : ألم أكن أولى بهذا الوقت الضائع ؟..

لاحظ صمتى ، وحرصى على عدم المشاركة . قال :

ــ مشكلة عادل مهدى إنه يتكلم فى الأدب .. ونحن نجيد التكلم فى قلة الأدب ..

كان قد أضيف مكتبان ، فأخليت الحجرة من كراسى الزوار : هل انتقلت الندوة إلى القهوة التجارية فى موعدها ؟.. ثم نبهنى عبد السلام أبو ستة إلى أن فاروق أبو سليم نقل مكتبى إلى الداخل ، فيتصدر مكتبه الحجرة ..

أدركت أنه يجدر بى أن أخوض معركة . كنت أشعر نحوه بالكره ، وإن أزمعت ألا أصطدم به إلاّ إذا بدأ هو الصدام ..

كتمت لهفتى للاقتراح بنقل الندوة إلى مقهى الميناء الشرقية . بدا منفذاً من الصراط الذى تعبره الجلسات فى مكتب الجريدة . تخيفنى توبيخات المدير ، وميول فاروق أبو سليم الاستعراضية . وكنت أخشى أن تتغير النظرة لى إذا جاءت المفاجأة بما لم أعد نفسى له ، وأتوقعه ..

لمحتها وأنا أميل من شارع سعد زغلول إلى شارع الغرفة التجارية ..

ــ علية ..

كانت علية ثروت تتأمل الفاترينات . أبرز ما يميزها غمازتان على جانبى وجهها . قوامها أقرب إلى النحافة . وشعرها أسود ناعم ، أسدلته على كتفيها ، وعيناها عسليتان ، زاد من عمق بريقهما ظل الرموش الطويلة . ترتدى جونلة صفراء تغطى ركبتيها ، وبلوزة حمراء تصل إلى العنق ..

ــ أين أنت ؟..

لاحظت ارتعاشة خفيفة فى شفتيها :

ــ موجودة ..

ــ أعرف .. لماذا لا تأتين إلى الندوة ..

انتزعت ابتسامة فاترة :

ــ قرفت !..

أعدت الكلمة :

ــ قرفت ؟!

هزت رأسها فى توال ..

رنوت إليها بنظرة متأملة :

ــ هل تخليت عن الشعر ؟..

فى لهجة باترة :

ــ أتخلى عن الشعر ، أو أفقد نفسى ؟!..

* * *

عاطف إمام ..

لم تكن تعرف لماذا يطاردها بنظراته ، ولا ماذا يريد منها على وجه التحديد .. وحين فاجأها بكلماته لم تعرف كيف تتصرف ولا ماذا تقول . فاجأها تصرفه ، ففقدت القدرة على رد الفعل ..

اختنق صوتها :

ــ لماذا لا تلجأ إلى امرأة ؟!..

وحاولت أن تعبّر بيدها ..

استقرت عيناه على منبت صدرها :

ــ لا أريد مجرد علاقة جنسية .. ولا أشعر بميل نحو الومسات ..

ثم فى نبرة تذلل :

ــ هذه نصيحة الطبيب ..

وضغط على الكلمات :

ــ أنا لم أقم علاقة مع أحد من قبل ..

تنمرت ملامحها :

ــ عاطف .. إن كنت تحرص على صداقتنا ، فلا تعد إلى هذا الكلام ..

همس بالتذلل :

ــ ولكن ..

قاطعته :

ــ هل فهمت ما قلت ؟..

هل تصدع جسده من طول الكبت ؟..

استعدت صورته : وجه قمحى مستطيل ، وحاجبان رفيعان مقوسان ، وعينان لا تستقران بين أجفانه الضيقة . فى بشرته لمعة ، كأنه دهنها بزيت ، دائم الطقطقة لعنقه ، وصوته يصدر من فتحتى الأنف ..

كان يطيل التحديق فى كل امرأة تمر أمام القهوة . يتابعها عندما يلمحها قادمة ، ويلحقها بنظرته وهى تمضى فى طريق الكورنيش . وكان يقدم على تصرفات لا نتوقعها . وضع على رأسه قبعة هائلة من الخوص ، لم ينزعها حتى بعد أن علت التعليقات الساخطة ، والساخرة . خلع حذاءه ، وسار فى المقهى حافى القدمين ، مزق أوراق جريدة إلى قطع صغيرة ، ونثرها على الرءوس ..

لو أنه لا يلتقى بها فى القهوة ، هل كان يقوى على دفع ثمن ما تشربه لو أنهما يلتقيان فى كازينو على البحر ، أو كافيتريا بوسط البلد ؟

التعبيرات المجانية ، كلمتان يرددهما زملاء الندوة ، فهل يضيف إليهما " الحب المجانى " ؟..

***

وأنا أسترد نظرتى من الرؤية اللا واعية للبحر ، لمحت فى المرآة المستطيلة على العمود المواجه للباب ، رجلاً فى حوالى الأربعين ، أكرت الشعر ، منمش البشرة . يرتدى بدلة صيفية وصندلاً متقاطع السيور . كان يجلس على طاولة ـــ فى الناحية المقابلة من المقهى ـــ يقرأ جريدة من وراء نظارته الطبية ، ويتسلل بعينيه ناحية طاولاتنا المتلاصقة ..

- ٩ -

رسمتك بين خطوط يدى

فكنت غدى

وكنت نهاراً لشمسى

وكنت صلاة لنفسى

وكنت ضمير البحار

أحبك .. تسأل عنا الكبائن والأبنية

وذبذبة النجم فى ليلة صافية

أحبك .. تسأل عنا الخطا

وموجة عشق تقبل هذا المدى

أحبك .. كورنيشنا ..

يسأل الآن عن حبنا

وبائع لب يجول على العاشقين

وحامل فل ينادى على الياسمين

لمن أقتنى فرحة البحر والفل والياسمين ؟
وشاوى الذرة
يخبّئ ما نضج الآن من أجلنا
ومقعد حب أقيم لنا
فما خطبنا ..
وأنت هناك وقلبى هنا ..[*]

عادت نيفين عصام إلى الندوة . اختفى قورة إدريس ، فلم أعد أراه ..

همست لى والندوة مشغولة فى مناقشاتها :

ـــ زارنى أول أمس .. طلب عودتى فرفضت ..

أردفت وهى تمسح أنفها بإصبعها :

ـــ قلت له : نحن شخصيتان مختلفتان ..

وضربت بطن يدها بظهر اليد الأخرى :

ـــ ما بيننا من المستحيل تجاوزه !..

رمقها بعينين باردتين :

---

[*] من قصيدة " إلى فتاة اسمها الإسكندرية " للشاعر أحمد فضل شبلول

ــ ماذا تريدين ؟..

ــ الطلاق !..

ــ أوافق أن تكونى حرة فى أمورك .. أما الطلاق فمرفوض ..

ركبها الغضب :

ــ أنت الذى تقرر ؟!..

ثم بصراخ منفعل :

ــ الحياة معك عبء لا أحتمله !.

***

ظللت أتابع سرباً من طيور النورس مضى فى امتداد الشاطئ حتى غاب عن الرؤية . لمحت فى المرآة أمامى كمال أبو القمصان قادماً من الباب الجانبى للمقهى ، يتخطى الكراسى القديمة والنارجيلات وأدوات النظافة ..

ــ تصورت أن الندوة ستأخذ إجازة بعد المظاهرات ..

لم يكن قد جاوز الثانية والأربعين ، لكن البياض فى فوديه ، والهالات السوداء حول عينيه أضافت أعواماً إلى عمره ..

علا حاجبا فتحى عيداروس بالدهشة :

ــ عملك فى فندق .. ما شأنك بالإجازات أو المظاهرات ؟..

قال نادر البقال :

ــ بالمناسبة ، هذه المظاهرات .. ضد من ؟..

اندلعت المظاهرات فى شوارع المدينة ، ففاجأت الجميع . الفوضى ، والصيحات ، والصراخ ، والهتافات ، والانفجارات ، والأجسام المتهاوية ، والشبان الذين يعدون ، والسيارات التى تشتعل فيها النار ، والسيارات المدرعة ، وجنود الأمن المركزى ، والهراوات ، وطلقات الرصاص ، والقنابل المسيلة للدموع ، وقنابل الدخان التى تغيب الملامح فى ضبابها . تزايدت أعداد المتظاهرين . امتدت إلى شوارع كثيرة ..

قال يحيى عباس :

ــ ضد إسرائيل ..

برقت عيناه باهتمام :

ــ وما الذى ذكّرهم بإسرائيل ؟..

ـــ خطب الشيخ المحلاوى فى المصلين بجامع القائد إبراهيم .. طالبهم بالتظاهر ضد العدوان على المصلين فى الحرم الإبراهيمى ..

قال فتحى عيداروس :

ـــ لماذا ضربتهم الشرطة ؟.. أين القانون ؟..

قال محمد الأبيض :

ـــ عطلته الحكومة حتى إشعار آخر !..

لم ألحظ إن كان محمد الأبيض كذلك قبل أن يصارحنى بما جرى له ، أم أن ملاحظتى لأنه روى لى . هل ملامحه هى هى ، أو أنى فطنت إلى ما طرأ عليه بعد أن حدثنى عن معاناة الأشهر القاسية . لم يعد يطيق البقاء ـــ لحظات ـــ فى مكانه ، يتقلقل ، يثور لسبب تافه ، أو بلا سبب . دائم التلفت ، ينظر ناحية الكورنيش المقابل ، والطريق ، ومداخل القهوة . كأنه يخشى شيئاً ، أو يتوقع ما لا أعرفه . ويبدو على ملامحه ما يشبه الفزع للأصوات المفاجئة : نداء بسيونى على مشروب ، صيحة فى الطريق ، كلاكس سيارة . وكانت تعروه حالات من الصمت . لا يسأل ، ولا يشارك فى المناقشات ، ويغرق فى الشرود ، شرود فى جزر بعيدة ، لا

أتبينها . عوالم يراها هو ، يتخيلها ، أو أنها فى داخله . يتجه بعينيه إلى البحر ، كأن الصخب الذى يدور من حوله لا يعنيه ، كأنه ليس موجوداً . وكنت أقرأ فى صمته ما أتصور أنه لا يريد أن يقوله ..

كان أسبق الزملاء إلى المناقشة . نفرغ من سماع القصة ، أو القصيدة . تتجه أنظارنا إليه ، نطلب رأيه . يعد ملاحظاته فى أثناء القراءة . خطوط ومربعات ومستطيلات وأسطر مما قرئ . رأيه هو المدخل للآراء التالية . مرة وحيدة سبقه يحيى عباس إلى مناقشة قصة قرأتها أسامة صابر ، رأى فيها تجديفاً : أنت لا تستطيعين ذكر ما يعيب فى رئيس العمل .. لكنك تعيبين على الذات الإلهية ما ينبغى أن تخجلى منه !

كنت ألحظ تهيؤ محمد الأبيض لإبداء الرأى فى قضايا السياسة . يأخذ سمت الموافقة أو الرفض . ربما رفع يده يطلب الكلمة ، ثم ما يلبث أن يخفضها . حتى إذا أشرت إليه اكتفى بالقول : سبقنى الزملاء إلى ما أردت أن أقوله !.. كانت الحال تتبدل فى جلساتنا الخاصة . يبدو أميل إلى البوح وإبداء الرأى . قمقم نزعت سدادته ، فهو يبدى الملاحظات

المخالفة ، والرافضة . حتى آراء الزملاء فى القهوة يستعيدها ، وينتقدها ..

وضع رأفت الجارم على الطاولة مجموعة من كتب الإنجليزية . لمحنى وأنا أقلّبها:

ــ أريد أن أتعلم الإنجليزية ..

ثم وهو يربت صدره :

ــ من المهم أن أقرأ فى اللغة الأصلية ..

كرر ما ألفنا سماعه :

ــ درجتان هما الفارق بين سان مارك وآداب الإسكندرية ..

قال عيد جزيرى :

ــ حزنت فى البداية لأنى كنت أفضل الحياة فى القاهرة .. فلما رأيت البحر تمنيت أن أحيا فى الإسكندرية !..

كان معقود اللسان ، لا يتكلم إلا بمشقة . يعانى الثأثأة واضطراب الكلام . يكرر الحرفين الأولين ، ثم تتدفق الكلمات . فى حوالى العشرين . له قامة مديدة ، نحيلة ، وشفتان غليظتان ، وذقن عريضة ، لا يغير بنطلونه الجينز والسويتر المقفول على الفانلة الداخلية ..

قال فتحى عيداروس :

ــ البحر أم كرم عبد الغفار ؟..

كان قد روى عن يومه الأول فى الإسكندرية . فض اللفافة الورقية ، وفرد مابها على الطاولة بسطرمة وجبنة رومى ومخلل . وضع الجرسون عبد الغفار أمامه كوب ماء ، فشكره . فاجأه ــ بعد قليل ــ بطبقين بهما أرز وبطاطس مطبوخة ..

هتف بالتأثر :

ــ أمامى كفاية ..

قال عبد الغفار وهو يعود إلى داخل القهوة :

ــ الأكل لا يرد !

هل يعرف أنه عضو جديد فى الندوة ، يعتزم التردد على المقهى ليصبح من رواده ؟..

روى ما حدث لأوائل القادمين إلى المقهى . ضحكوا ، وتناولتها مناقشاتهم التالية ..

غالب الذهول حين رأى البحر للمرة الأولى . صحبه فتحى عيداروس فى طريق الكورنيش . ملايين الترع كالتى

فى قريته ، اختلطت ، فشكلت البحر الواسع ، الممتد بلا أفق ، المتلاحق الموجات ..

كل هذه المياه ؟! ..

تذوق طعم الملوحة من الرذاذ المتطاير على شفتيه . لماذا مياه البحر مالحة ، ومياه النهر عذبة ؟..

لم يكن قد رأى البحر من قبل . قريته القريبة من سوهاج ، تمتد فيها ، وتلتقى ، ترع وقنوات . ينادى على الواقف فى الناحية المقابلة ، أو يعبر المسافة فى دقيقة ــ سباحة ــ بين الشاطئين . حتى المراكب بدت مختلفة عن التى تسير فى النيل . هذه مراكب حقيقية . مراكب النيل كأنها اقتطعت من وسطها ، فظل الجزء الأسفل ليقف الناس ، أو تصف البضائع ..

أطلق صيحة فزع لارتطام الموج بالمكعبات الأسمنتية أسفل الكورنيش ، وتصاعد المياه رذاذاً يتناثر على وجوه الواقفين ، وعلى الرصيف الحجرى ، وأرض الطريق . كان قد استمع إلى قصص البحر . تحيا فى الخيال والغرائب والأسطورة والخوف من المجهول والسفر إلى المدن البعيدة ..

ـــ كنت أرسم البحر المتوسط فى الخرائط معتمداً على التصور .. الآن أراه أمامى حياً وممتداً فى الأفق ..

عاد إلى الكورنيش مرة ثانية ، وثالثة ، يطيل التأمل . وكان يحب رؤية شروق الشمس فى أفق البحر . يطيل وقفة التأمل ، أو يمشى ـــ بخطوات سريعة ـــ بين بداية الميناء الشرقية إلى السلسلة ..

قدم نفسه شاعراً للعامية . يلقى قصائد متباعدة ، ومشاركاته قليلة فى المناقشات . كنت ألحظ شروده المفاجئ كأنه يعانى ، ونادراً ما يتكلم ، أو يضحك ، أو يبدو عليه انفعال . وكان دائم التنهد ، وينهج وهو يتكلم أو يقرأ ، ويعانى التعب لأقل مجهود . حتى لو شارك فى مناقشة . يرين على وجهه شحوب ، وتبدو أنفاسه كاللهاث ..

خمنت أنه مريض بالقلب ، أو بالربو ..

قال محمد الأبيض :

ـــ كتب الإنجليزية لا تكفى .. لابد من مدرس ..

ووشى صوته بسخرية :

ـــ على مرتضى النادى أن يلجأ إلى نفوذه ..

بدا على النادى حرج واضح . كنا نعرف أنه لا يحب الشعر ، ولا يفهم البحور ولا القوافى ، ولا الفرق بين القصة والرواية ..

كانت العلاقات العامة موهبته التى يجيد استخدامها . مفكرته الصغيرة تضم عشرات الأسماء من مهن متباينة . أتأمل قدرته المذهلة على إنشاء العلاقات ، فهو على صلة بالمحافظ وسكرتير المحافظة ورؤساء الهيئات الحكومية ورؤساء الشركات . له أصدقاء فى كل مكان ، شبكة علاقات واسعة ، مذهلة ، فى المحافظة ، وفى الميناء ، وفى مصلحة الجمارك ، وفى الشركات . حتى أندية الإسكندرية ، امتد نفوذه إليها ، يحصل لأصدقائه ومعارفه على عضويتها المجانية . حتى المهام الصغيرة ينجزها ، بمفرده أو بمعاونة آخرين . يقضى لكل من يقصده حوائجه : تدبير تذكرة طائرة ، أو قطار ، استخراج جواز سفر ، أو قيد عائلى ، أو استمارة دخول إلى الدائرة الجمركية ..

قال محمد الأبيض :

ــ لأنك تحمل دائماً كتباً بالإنجليزية .. تصورت أنك تجيدها ..

وهو يغالب حرجه :

ـــ أنا أقرأ الإنجليزية .. ولكن ليس إلى حد الإجادة ..

أعرف أن شخصيته الحقيقية تختفى وراء الكذب . أطيل التحديق فى ملامحه وهو يتكلم ، كأنى أبحث عما يضمره . ترافق أكاذيبه الواضحة ابتسامة طفولية رائقة ، تبحث فى عينيك عن التصديق والمشاركة ..

همست فى أذن فتحى عيداروس :

ـــ وكتبه المترجمة .. أعرف أنه ترجم كتابين أو ثلاثة..

كور أصابعه فى الهواء :

ـــ ليس بالضبط ..

هززت رأسى دلالة عدم الفهم :

ـــ ماذا تقصد ؟..

ـــ مرتضى النادى يعيد صياغة الترجمات البيروتية ..

ـــ يعنى يترجم من العربية إلى العربية ..

قال فتحى عيداروس فى صوت خافت :

ـــ الريس يحبّك امسح إيدك فى القلع ..

واهتزت السيجارة بين أصبعيه :

ـــ النادى تحميه السلطة ، فهو يفعل ما يشاء ..

حاولت أن أتأكد مما لاحظته من قبل ، وربما لاحظه الزملاء . إذا أقبلت إيناس عبود ، اتجهت الأعين ـــ بتلقائية ـــ إلى رأفت الجارم . أخمن أنهم يعرفون ، وإن كنت لا أعرف المدى الذى بلغته تصوراتهم . رأفت الجارم يحس بنشوة لمجرد تلامس جسده بجسد إيناس عبود . كأنه تحول إلى رغبة فى أن يلمس بشرتها بأصابعه ، يدها ، ذراعها ، ساقها ، أى جزء من الجسد الصغير يحاول ـــ بإيهام العفوية ـــ أن يلمسه ، ويشم رائحته . القوام الرقيق المتناسق ، والوجه الحالم ، المنمنم الملامح ، والعينان البنيتان الواسعتان ، الملتمعتان ، يطل منهما شرود حزين . حتى كوعه كان يلمس جنبها فى اقتراب المقعدين .. هل تأخذ بالها ؟.. هل كانت تدرك معنى نظراته ، وماذا يريد ؟

هل لاحظت ما يحدث بين رأفت الجارم وإيناس عبود لأنى ألاحظ كل ما يدور فى الندوة ؟ هل لاحظت حبه لها من النظرات التى لا ترتفع عنها ؟ .. يختلس النظر إلى وجهها وهى صامتة ، وهى تتكلم ، وهى تتحرك . يصل بين عينيه

ووجهها خيط غير مرئى . هل لاحظ الزملاء ما لاحظت ؟..
وهل توافق إيناس على ما يفعل ، أو أنها لا تأخذ بالها ؟..

عرفت طريقها إلى الندوة مع فتاتين من قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب . غابت الفتاتان ، وظلت إيناس على صلتها بالندوة ، تقرأ قصائدها ، وتشارك فى المناقشات ، وتطمئن إلى تصويبات يحيى عباس لمحاولاتها .

أدركت ، بدوام المراقبة ــ المراقبة ؟! ــ وربما الزملاء ــ أنه يحبها فى صمت . لا يحسن التعبير عن مشاعره ، أو أنه يخجل من التعبير عنها . ابتسامته الدائمة ، المرتبكة ، طريقته فى التعامل معها ، غلبة التوتر على تصرفاته ، فلا يعرف كيف يسيطر على نفسه . حتى إذا جلس فى صف خلفى ، فإن المتعة تلتمع فى عينيه وهو ينظر إلى انسدال شعرها على كتفيها . يتنبه ــ أحياناً ــ إلى أنها تقف على الشاطئ المقابل ، البعيد . قاربه يعجز عن الوصول إليها ..

* * *

وأنا أهم بفتح باب حجرتى ، تناهى ــ من وراء باب حجرة أمى المغلق ــ صوت كالنشيج . أصخت السمع لحظات ، ثم فتحت باب حجرتى ..

طالعنى ما اعتدته فى الأشهر الأخيرة . لما حاولت أمى أن تعيد ترتيب الحجرة كما كانت تفعل دائماً ، قلت بلهجة رجاء حاسمة :

ــ دعى لى ترتيب كل شئ !

احتضنتنى بابتسامة مشفقة :

ــ هل خاصمتنى ؟..

داخل صوتها نبرة انفعال ، ليست ضيقاً ولا غضباً ، ولكنها أقرب إلى الخوف ، أو الإشفاق .

لم تشر إلى أطباق الطعام التى أتركها كما هى على المكتب . لا أجد رغبة فى ألطعام ، ولا فى النوم ، ولا حتى فى العمل . اختطف من كل شئ بلا استمتاع ، ولا تذوق . أسبح فى بحر من القلق والخوف والشكوك ..

ظللت ساهياً عن اتساع الفوضى ، واختلاطها . الأدراج مفتوحة ، والكتب ملقاة فوق المكتب ، وعلى الأرض ، والكرسى ، والسرير ، والأوراق متداخلة مع الكتب ،

والثياب على طرفى السرير والكرسى . بدا لى ما يحدث حلماً ، أو كابوساً ، سأصحو منه بهزّة ـ ألفتها ـ من يد أمى . وكانت لحظات النوم قصيرة ، متقطعة ، تتخللها ، وتوقظنى أحلام وكوابيس ، يختلط فيها البشر والحيوان والطير والهمسات والصراخ . أصحو ـ مفزوعاً ـ على أصوات تخاطبنى . أتلفت حولى لتبين مصدر الصوت . أطل من خصاص النافذة على الطريق . أفتح باب الحجرة ، وأحدّق فى سكون الصالة المظلمة ..

ـ سأعيد بنفسى ترتيب كل شئ !..

كنت أدرك أن أمى تراقبنى ، وتحس بما أعانيه ، وإن لم أكلمها عن التوقعات التى تشغلنى . أشياء أتوقعها . متى ؟ وأين ؟ لا أستطيع أن أخمّن ، لكنها لابد أن تحدث . لا أدرى طبيعتها ، ولا صورتها ، ولا مدى خطورتها ، وإن أثق أنها خطيرة . أنتظر شيئاً غير محدد ، شخصاً ، أو مجموعة أشخاص ، تصرفاً لا أخمنّه ، ولا أقوى على رده . يفاجئنى فى لحظة اللاتوقع ، فى البيت ، أو على المقهى ، أو فى الطريق . يفصل بين ما قبل وما بعد . تمضى التوقعات فيما كان يرويه محمد الأبيض ، وأنصت ـ بالذهول ـ إليه ،

وأتخيله . أشعر بالخطر . أكاد أتبين ملامحه ، لكننى لا أقوى على فعل شئ . وكانت تضايقنى نظرات أمى المشفقة ، أو الخائفة ، تشعرنى بالمأزق الذى أعانيه . أخاف البيت والجدران ومكتب الجريدة وميدان أبو العباس ومقهى المينا الشرقية والوجوه غير المألوفة والآذان المتنصتة ..

ـ ١٠ ـ

غالبت انفعالى حين وقف قورة إدريس على باب القهوة . كان قد مضى عليه أشهر ، فلم أتوقع حضوره ..

تأملته وهو يقرأ ، وهو يناقش ، وهو يتابع . أتخيل ما دعا نيفين عصام إليه . أبحث عما لم أفطن إليه فى ملامحه المنفعلة . هل يضم السرير الواحد أكثر من رجل ، وأكثر من امرأة ؟.. كيف تكون العلاقة ؟..

لم أتصور أن ذلك قد حدث . لم أتصور أنه يحدث ..

التقت عيناى بعينيه ، فتشابكت النظرات .. هل هو ؟..

تلفت ــ بعفوية ــ إلى وقع القدمين خلفى :

ــ محمد ..

قال محمد الأبيض :

ــ طريقنا واحد ..

كان يعانى . يدارى توتره بلهجة متباطئة ، هادئة . بدا أنه يريد أن يفرغ ما بنفسه ..

ــ مالك ؟..

***

ألف أصوات الأقدام الملهوفة تصعد السلم ، والطرقات العنيفة المتوالية ترج الباب ، والصوت الآمر : افتح .. بوليس !..

قال :

ــ ما يؤلمنى هو الشعور بأنى لم أعد أنتمى إلى هذا البلد ..

ــ لماذا ؟..

ــ خطر الاعتقال والتعذيب الذى أواجهه كل لحظة..

هل المراقبة لأن محمد الأبيض يتردد على الندوة ؟..

ومضت على شفتيه ابتسامة مهزومة :

ــ حتى رانيا فسخت خطبتها لى ..

نظرت خلفى لأطمئن إلى أن أحداً لا يتابع حديثنا :

ــ لماذا ؟ وكيف ؟..

***

حين فتحت منار ــ شقيقتها الصغرى ــ الباب ، عراها لرؤيته ارتباك وتردد . فاجأته بالقول :

ــ دقيقة واحدة ..

وأغلقت الباب .

ظل واقفاً يخمن ما حدث ..

فتحت البنت الصغيرة الباب ..

جلس فى الصالون يعانى شعوراً بالغربة ..

دخل الأب :

ــ أهلاً وسهلاً ..

وهو يغالب ارتباكه :

ــ خرجت أمس ..

ــ حمد الله على السلامة ..

تلفت :

ــ أين رانيا ؟..

ــ بخير ..

ــ هل هى موجودة ؟..

ــ أرحب بزيارتك كصديق للأسرة .. أما رانيا فهى لا تقابل الغرباء ..

عانى ليبدو طبيعياً :

ــ غرباء !.. هل أصبحت غريباً ؟!..

ــ مادمتما لم تعودا مخطوبين .. فأنت غريب عن رانيا..

شعر بجفاف فى حلقه :

ــ متى فسخت خطبتنا ؟..

ــ عندما تغيرت الظروف ..

ــ أى ظروف ؟..

قال الرجل فى انفعال :

ــ ألم تكن فى السجن حتى أمس ؟..

رمقه بنظرة مستنكرة :

ــ أنا لم أسجن بتهمة السرقة ولا القتل ..

أشاح بيده فى عدم اكتراث :

ــ المشكلة فى السجن وليس فى نوع الجريمة ..

ــ هل سألت رانيا ؟..

دفع إليه علبة مربعة من الكرتون :

ــ هداياك كاملة هنا ..

وضغط على الكلمات :

ـ إذا كان أمر ابنتى يهمك ، فلن ترضى لها بفضيحة زواجها من مجرم ..

صرخ :

ـ ماذا تقول ؟..

أعاد الرجل فنجان القهوة إلى الترابيزة :

ـ من يدخل السجن .. ماذا تسميه ؟..

ـ تهمة سياسية .. وثبتت براءتى ..

ـ هذا موضوع لا شأن لنا به ..

وعلا صوته :

ـ لو أنى أعرف أنك دخلت السجن من قبل ما وافقت على زواجكما !..

ونتر الهواء بيده :

ـ لن أزوج ابنتى لرد سجون !..

تيقن أنها ليست مسئولة عن قرار أبيها . هو الذى اتخذه ، وفرضه عليها ، عليهما . انتظرها على ناصية شارع السلطان حسين المؤدى إلى البيت . لمحته ، رأته ، أسرعت من خطواتها ..

ـ ١١ ـ

بدا لى شخصية متوارية فى الظلال . لم أكن مستريحا له . ثمة شئ يدعو إلى الحذر تنطق به عيناه ، وإن لم يتأكد فى تصرفات محددة . كان أميل إلى الهدوء ، لا يشى وجهه بما يدور فى ذهنه ، ويجتنب الكلام . يغيظنى صمته ، وابتسامته المحايدة لا تبين عن رضاه ، أو عدم رضاه ، فهى ابتسامة بلا معنى محدد ، وإن يدهمنى ارتباك لنظرته التى أتبين أنه لم يحولها ، نظرة ــ على شفتى وأنا أتحدث ــ ثابتة ، مشفقة ، كأنه يخشى أن أخطئ ، أو أقول ما لا ينبغى قوله ، أو كأنه يحرص أن يظهر محاصرة عينيه لى طول الوقت ..

اختار موضعاً خارج دائرة الندوة ، وراء ضلفة الباب المواربة ، وتحت صورة فوتوغرافية من التى علقت على الجدران تحمل صوراً لمدن مصرية ، بعيداً عن الطاولات

المتلاصقة . نلتف حولها ، وإن ظهر اهتمامه من العينين اللتين تحولتا إلى متابعة خالصة . يلجم نفسه ، ويلوذ بالصمت ، يكتفى بالتطلع إلى الوجوه ، ومتابعة المناقشات ، ولا يتكلم إلاّ نادراً . قد تمر أسابيع قبل أن يرفع يده بطلب إبداء رأى . ولم يكن يقرأ ما يدور حوله النقاش . يكتفى بتعقيبات متباعدة على الملاحظات . وكان يرفض أن يدفع له أحد ثمن المشروب . يزيح اليد الممدودة إلى الجرسون ، ويصر على دفع ما طلبه ..

لم ألحظ متى بدأ تردده على الندوة ، لكننى تنبهت إلى وجوده منذ فترة قريبة . ربما شهرين أو ثلاثة . فى حوالى الثالثة والعشرين . شعره كثيف ، مجعد ، أقرب إلى الصفرة . يتسلل بنظراته من تحت جفنيه . له أنف أقنى ، وشارب خفيف ..

غاب اسمه عن زملاء الندوة ..

تعمدت أن ترافق سؤالى ابتسامة واسعة :

ـــــ أيها الرجل الصامت .. ما اسمك ؟..

أشار إلى نفسه :

ــ أنا ؟..

فى نبرة محرضة :

ــ نعم .. أنت ..

استطردت متسائلاً :

ــ ألا تشارك فى الندوة ؟..

وهو يدفع براحته خطراً وهمياً :

ــ أنا مجرد قارئ ..

ــ هل اسمك من الأسرار الحربية ؟..

ــ محسن سالم .. طالب بنهائى الطب ..

ــ قصة أو شعر ؟..

أظهر التململ :

ــ كما قلت .. أنا مجرد قارئ .. لم أفكر فى الكتابة بعد ..

ــ ولماذا تجلس بعيداً ؟..

رسم على شفتيه ابتسامة أسف :

ــ ربما لأنى خجول ..

تنبهت إلى أصابع رأفت الجارم تلامس ركبة إيناس عبود ، الوردية ، العارية . لم تتحرك ، ولم تنظر إليها . هل هى راضية ، أو أنها انشغلت بما يدور أمامها ؟..

قال فتحى عيداروس :

ــ ضع على وجهك منخلاً واقترب ..

كتم ضحكته المقهقهة لما واجهته بنظرة مؤنبة ..

هل يكون هو الرجل ؟.. لابد أنه هو . ما معنى أن يكتفى بالقراءة ؟.. ولماذا غاب اسمه عن زملاء الندوة ؟..

الاسكندرية تشغى بالندوات .. فلماذا تقتصر مشاركته على هذه الندوة ؟..

ماذا يريدون من المراقبة ؟..

حياتى بين البيت والمكتب . مصادرى معروفة . لا أتردد إلاّ على الأماكن التى تمارس نشاطاً ثقافياً . لا شأن لى بالسياسة . لعن الله ساس ويسوس . أدركت أن الأسئلة ستضيف إلى مخاوفى . استقرت فى داخلى حالة من الانتظار والتوقع . أحسست أنى مهزوم ، وأنى فقدت القدرة على فعل شئ . تساوت نظرتى إلى الناس والأشياء ..

تحولت إلى أذنين تصيخان السمع لكل الأحاديث العالية والهامسة ، تلتقطان حتى ما قد يبدو عفوياً فى العبارات والكلمات ، أتأمل معانيه المضمرة . وكنت أتصور مواقف ، وأجرى حوارات مع شخصيات تستدعيها الذاكرة ، أو وهمية

. يهمس صوتى أو يعلو . تشارك يداى فى التعبير ، وأحيا فى الجزر المنفصلة . أفطن إلى ما أفعله ، أو تنبهنى عينا أمى القلقتان ، تكشفان ما يمور فى داخلى من مشاعر صاخبة ، فأدارى ارتباكى ..

لفنى قلق لرؤية رجلين تحت ظل شجرة فى ميدان المنشية ، يتهامسان وهما يرمقاننى بنظرة متأملة ..

أسرعت فى خطواتى ..

تعمدت أن أترك ورقة بها أسماء . هؤلاء هم أصدقائى : أدباء وفنانون . لا أرقام ساسة فلا شأن لى بهم . أعاد لى بسيونى الأوراق فى موعد الندوة التالية . هل ظلت مودعة لديه حتى أعادها ؟ أو أن هناك من نقل الأسماء المكتوبة فيها ؟..

لماذا لا أنهى الندوة ، فينتهى الأمر ؟.. لا قراءات ، ولا مناقشات ، ولا ندوة . يظل الملف خالياً حتى يدركهم السأم ، فيغلقوه . مجرد أن أصارح الزملاء بأن الندوة مراقبة ، وأن الأفضل إيقافها فلا تفاجئنا التوقعات . ناقشت الأمر ــ بينى وبين نفسى ــ من بدايته ، منذ التقيت بالرجل الذى لا أعرفه : كان حضور الندوة جزءاً من عملى .. أنا أهوى

الشعر .. لكننى مساعد فى مباحث أمن الدولة .. ألا تعرف أن الندوة مراقبة ؟.. هذا عملنا يا أستاذ .. كل الندوات يجب أن نراقبها .. أى تجمع لابد أن نراقبه ..

اختلطت الأقوال والأحداث والمواقف ، فلم أصل إلى قرار ..

ذهبت إلى طبيب تطل عيادته على ميدان محطة الرمل . كتب على لافتته ــ بمساحة البلكونة ــ طبيب أمراض باطنة وقلب . شكوت التقلصات المبرحة ، والحموضة الدائمة فى صدرى . كتب أدوية ، ونصح بعدم الانفعال . تعاطيت الأدوية ، واعتبرت عدم الانفعال مرادفاً للعنقاء والخل الوفى ..

قالت أمى :

ــ كان يجب أن تطلقها عندما اكتشفت الرسالة ..

أدرت وجهى ، أتقى نظرة الاتهام فى عينيها ..

اتجه إلى الناحية المقابلة ، ربما لتكتم انفعالها :

ــ لم أكن أحب أن تنتظر حتى تطلب هى الطلاق ..

وشوحت بيدها ، ومصمصت شفتيها :

ــ التردد !.. التردد !..

أغمض عينى لتصور الشائعات التى هددت بها . لو أنى طلقتها رابع يوم ، كنت سأواجه بما لا أقوى على رده . لن أكون أنا ، وإنما التشوه الذى ستحدثه . يلفنى العجز فى مواجهة ما أخشاه ، وما لا أفهمه . هل كانت ستصرخ بالفعل ، وتفضحنى ، أو أنى حملت المسالة مالا تحتمل ؟..

ركبت ترام أربعة ، المتجه إلى محرم بك ..

البيت رقم واحد بشارع ابن طريف . له بابان ، يصلانه بالبيت المجاور . السلالم والدرابزين من الرخام . لانوافذ ، والمرئيات تبين بالكاد ..

أمعنت النظر ــ فى الظلمة الشفيفة ــ إلى موضع الجرس . أطل ــ من وراء الباب ــ بوجه عليه أثار نوم . كنت قد أخبرته بأنى سأزوره ، لكن عينيه التمتعتا بالمفاجأة ..

الصالة واسعة ، تتوسطها مائدة طعام ، أحاط بها ستة مقاعد . وثمة كنبة استامبولى تطل النافذة وراءها على الشارع الخلفى ، وبوفيه ، وثلاجة خضراء اللون ، ولصق الجدار رف فوقه راديو ، ورصت على حافة النافذة المواربة أصص للعتر والريحان والقرنفل ، تلاصقها صينية

القلل ، وتدلت من السقف نجفة من الزجاج الملون المقلد للكريستال ..

الحوائط مزدانة بالورق المزخرف ، وإن أحدثت الرطوبة بقعاً من النشع ، وعلى الجدران صور لرجال بالجلابيب ، وعلى رءوسهم الطرابيش ، ونساء بالفساتين الطويلة ..

فى الجوانب أربع غرف ، وطرقة إلى اليمين ، ربما تفضى إلى المطبخ والحمام . وأطل من باب موارب وجها ولد وبنت ، خمنت من تشابه الملامح أنهما أخواه ..

ــ كنت ماراً بالقرب من البيت .. تذكرت أنك أعطيتنى العنوان ..

أظهر محسن سالم فرحة حقيقية :

ــ أهلاً وسهلاً ..

وأنا أقاوم الحرج :

ــ هل الوقت مناسب ؟..

ــ كل الأوقات مناسبة .. زيارات الأصدقاء فترات راحة من المذاكرة المستمرة ..

وافترت ابتسامته عن أسنان ملتمعة :

ـــ أنا الآن فى السنة النهائية ..

ظهرت الأم على باب الحجرة تحمل صينية عليها كوبان من الليمون . فى حوالى الخمسين . ممتلئة الجسم . بيضاء البشرة ، تناثر فيها نمش كثير ، ولها شارب خفيف فوق شفتها العليا . ترتدى جلباباً قطنياً أبيض ، عليه نقوش كثيرة لزهور متعددة الألوان . ووضعت على رأسها شالاً من القطيفة الخضراء ..

ـــ الأستاذ عادل مهدى .. رئيس ندوة المينا الشرقية ..

هتفت الأم بالتذكر :

ـــ أفضل أن يفرغ لمذاكرته .. لكنه يحبك جداً ..

قلت بانفعال عاطفى :

ـــ وأنا أحبه كذلك ..

أعدت تأمل الحجرة : صغيرة ، جدرانها مغطاة بالصور الملونة ، المقصوصة من المجلات ، لممثلات ومطربات وراقصات . وعلقت فى منتصف الحائط صورة فوتوغرافية كبيرة للكعبة . لصق الحائط سرير لشخص واحد ، وشماعة ، ومكتب من الصاج ، وضعت فوقه صفوف من الكتب والأوراق . وفى الجانب طاولة بلا مفرش ، تناثر

فوقها زجاجات صغيرة وكوب بداخله ملعقة ، وكراسة ممزقة الغلاف . واستندت إلى زاوية الجدار سجادة مطوية ..

ــ لى محاولات فى الشعر .. لكن خجلى من المجتمعات يمنعنى من تقديم نفسى ..

قلت بانفعالى العاطفى :

ــ لماذا لا تقرأ فى الندوة ..

ــ أخشى النقد ..

ــ تخجل من المجتمعات .. وتخشى النقد .. كيف ستعالج مرضاك إذن ؟!

تأملت الملاحظة ، فأدهشتنى ..

ـ ١٢ ـ

أهملت وضع صاحب المخزن فى ناصية الشارع فى قائمة من عهد إليهم بمراقبتى . فوجئت بأن المخزن مفتوح للمرة الأولى منذ أشهر طويلة ، والرجل فى داخله يتأمل ما لم أتبينه . تنبه إلى خطواتى أمام الباب ، فخصنى بنظرة طويلة محدّقة . طردت كل الهواجس ، ولم يعد الرجل فى قائمة من أتصور رقابتهم ، بعد أن ظل المخزن مغلقاً فى الأيام التالية ..

هل ثمة من يراقب الندوة ، أو أنها أوهام وضعنى فى قلبها ذلك الرجل . جعلنى أتخيل أشياء ، وربما أفر من أشباح أنا الذى خلقتها . مضت أشهر ولم ألحظ ما يشى بالمراقبة . يصعب التنبه لتصرف بالذات . خامرنى شك فى أن يكون الرجل قد كذب حين قال إن الندوة مراقبة . ربما دفعه إلى ما قاله رغبته فى التحدث إلى ، وجذب اهتمامى ..

بدا كل شئ سخيفاً ، وبلا معنى . داخلنى إحساس أشبه باللوم لأنى أسلمت نفسى لمخاوف لا أساس لها . أزمعت أن أهمل الأمر تماماً ..

لم أعد قادراً على التحمل . انعكس الإرهاق فى ملامحى نظرات متسائلة ، أو مشفقة ، فى عيون الآخرين . داخلنى خوف غامض لم أستطع تبين بواعثه ولا توقعاته . غلبنى التردد فهو يسم تصرفاتى ، والآراء التى أقولها . فقدت القدرة على التعبير عن أفكارى ، تغيب الأفكار قبل أن أبلورها فى كلمات محددة . وكنت أجول بنظرة متفحصة فى القهوة . يغيب التخمين فى تباعد الموائد ، وقلة الزبائن ، وجلوسهم متقابلين ، شاب وفتاة ..

كنت أنظر إلى الوجوه بتساؤل وشك ، أرصد المناقشات والحركات والسكنات والتعليقات الهامسة ، ألتقط من الكلمات ما يحاولون إخفاءه ، ما تكشف عنه عبارة ، أو إيماءة ، أو نبرة مغايرة . ماذا يكتب الرقيب ـــ الذى لا أعرفه ـــ فى تقاريره ؟.. قال يحيى عباس إن الدين هو الأمل ضد هجمات الصليبيين الجدد ، وتكلم فتحى عيداروس عن رؤيته لعيد جزيرى يأخذ نقوداً من بسيونى ، واحتجت

أسامة صابر بأن المجتمع يعطى المرأة حقوقها فى العلن ، ويسلبها فى السر ، وقال قورة إدريس إنه لا يعرف يميناً ولا يساراً ، فالمثقفون قسمان : من اختار الوصولية ، ومن عجز عن الفعل . ماذا نقل فى تقاريره ؟ وأيها يحمل الإدانة للندوة وأعضائها ؟ وهل يفاجئنى المحقق ــ الذى تخيلته من رواية محمد الأبيض ــ بما لم أفطن إليه ، ولا توقعته ؟.. يجتذبنى الشرود ، وإن تظاهرت بالمتابعة . لا أسمع المناقشات من حولى ، ولا ألحظ القادمين ، ولا الوجوه التى أحاطت بى . أثق أنى سأواجه ــ فى لحظة ما ــ ما يصعب مواجهته . لم أتصور شخصاً ولا شيئاً بالتحديد ، إنما هو الخطر باتساعه وإطلاقه . تمنيت اللقاء ، لا تشغلنى النتائج . أتوقع من لا أعرفه . أواجهه قبل أن يواجهنى . لا أترك أرض الصفر . أدرك أن شيئاً لا بد أن يحدث . لم أحدد صورته ولا قسماته ، ولا خمنت موعد حدوثه ، لكن التوقع استقر فى داخلى . مضى التصور إلى مداه . أيقنت أنى سأكون فى الحجرة التى حدثنى عنها محمد الأبيض ، فى لحظة ما ، أواجه الخوف والأسئلة والتعذيب ..

تنبهت لقول الشاب ذى الوجه المستدير والعينين الزرقاوين ، قبل أن يقرأ قصته :

ــ مجدى الأسيوطى .. ضابط شرطة ..

ضابط شرطة ؟.. هل تحتّمت المواجهة ؟..

لم يش ما يرتديه بمهنته : القميص الحريرى المشجر ، فك أزراره العليا ، فظهرت غابة الشعر فى صدره ، والسلسلة الذهبية تدلت من عنقه ، والبنطلون الجينز ، والحذاء القماش . كان يجلس صامتاً ، لا يتحدث إلاّ إذا أجاب عن سؤال ، ولا يبدأ بالتحية أو الكلام ، وعباراته قليلة ، متباعدة الكلمات . ظلت نظرتى إليه مليئة بالتوجس . تباين شعورى إزاءه بين الكره والخوف . ما معنى أن يعلن ضابط شرطة عن وظيفته فى ندوة أدبية ؟..

حين التقت نظرتى ــ للمرة الثانية ــ بنظرته ، ومضت على شفتيه ابتسامة مجاملة سريعة . خمنت أنه كان يتابع اتجاه نظراتى . لم تتحول عيناه عنى لحظة واحدة ..

التعرف الأول لشخص ما ، يترك أثراً ثابتاً ليس من السهل محوه ، أو تغييره . بدا لى خصماً ــ أو عدواً ــ متوقعاً . ظلت النظرة المتسللة فى ذاكرتى ، أحس بتأثيرها

كسكين حاد اخترق جسمى . نحيت التحقيق الذى كنت أكتبه فى حجرتى . حاولت أن أستعيد صورته . كتبت : طويل . شطبت الكلمة وكتبت : أميل إلى الطول . كتبت : أسمر البشرة . حذفت العبارة ، وكتبت : قمحى اللون . تأملت العبارة : له عينان نافذتان . كتبت بدلا منها : له نظرات ماكرة ..

مزقت الورقة تماماً ، وألقيتها فى السلة ..

***

لاحظت أنه ــ بعد أن قدم نفسه ، وشارك فى مناقشة قصيدة ليحيى عباس ــ تصرف على أنه قديم فى الندوة . يبدى الرأى ، ويوافق ، ويرفض ، ويعلن إعجابه ورفضه . استغربت للصداقات المفاجئة التى نشأت بينه وبين زملاء الندوة . أحاديث هامسة وعفوية ، تشى بأن المينا الشرقية ليست مكان اللقاء الوحيد . الهمسات والتصرفات بينه وبينهم تخلو من الكلفة تماماً ، كأنهما صديقان من زمن ، كأن جلسة الميناء الشرقية امتداد للقاءات أخرى ، فى أماكن أخرى . ربما استطاع أن يجتذبهم ليحصل منهم على ما يريد . كان فى حالة يقظة ذهنية دائمة ، فهو يستغل كل طاقات ذهنه ،

حتى فى الأمور التافهة . تصورت أنه يستخدم ذكاءه حين يعيد كوب الماء إلى موضعه . بدا إجهاده لملكة الذكاء عنده ، فى إنصاته ، وفى أسئلته ، وفى آرائه التى لا يتدبر وقعها على الآذان . وكان يثيرنى حين يصل قبل نهاية الندوة . يلقى السلام ، ويجلس . ربما تبادل الكلمات الهامسة مع الجالس بجانبه ، ثم يمضى . لماذا جاء ؟ ولماذا انصرف ؟ وهل تحولت الندوة كلها إلى أعين وآذان تعمل لحسابه ، فهو يتبادل الهمسات مع الجميع ؟!..

قررت أن أتعرف إليه ..

طرف الخيط سحب الجرافة قبالة المحكمة . قال إنه يعرف مناطق الصيد ، ومناطق تكاثر السمك ، ومواعيد هجرة الطيور ، وأنواعها ، ومواسم وضع البيض ، وحركة المد والجزر ، والتيارات ، وهبوب الرياح ، ومواعيد النوات ..

ولون صوته بتأثر :

ــ تعلمت الصبر من صيد السمك !..

قال رأفت الجارم :

ــ مرتضى النادى ترميه البحر يطلع فى إيده سمكة !

زفر فى حزن :

ــ لا وقت عندى الآن حتى لمجرد أن أقف على شاطئ البحر ..

كنت أرقب حركات رأسه ويديه ، ونطق شفتيه بالكلمات . أحاول أن أعرف ماذا تنطوى عليه نفسه ، أكتشف ما قد يخفيه . حين يرانى أنظر إليه ، أو يشعر بمتابعتى لكلامه ، أو تصرفاته ، يرسم ــ على شفتيه ــ ابتسامة واسعة ..

قلت :

ــ عملك فى المباحث العامة .. أليس كذلك ؟

رمقنى بنظرة متسائلة :

ــ كيف عرفت ؟

ــ مجرد تخمين ..

أضفت :

ــ هل من عملك مراقبة الندوات ؟..

وهو يهز رأسه بالنفى :

ــ تعنى هذه الندوة ؟..

هل يقرأ ما فى داخلى ؟..

قال بلهجة محايدة :

ــــ أنت تعرف أن الندوة مراقبة ..

أردف للتساؤل فى ملامحى :

ــــ كل الندوات المماثلة لابد أن تراقب ..

ثم فاجأنى بالقول :

ــ ألم تتعامل مع المباحث من قبل ؟..

بدا فى عينيه التماع ، كأنه يبحث عن الوسيلة التى ينفذ بها داخلى ، يسبر مشاعرى ، وما أخفيه ..

ــ ماذا تقصد ؟..

ــ ألم تستدع إلى مباحث أمن الدولة ؟..

ــ لا .. لماذا ؟..

قلب شفته :

ــ لا أقصد الندوة .. ولكن طبيعة عملك كصحفى ..

تنحنحت لأزيل حشرجة فى حلقى :

ــ زرت مبنى الداخلية فى لاظوغلى بالقاهرة .. قابلت ضابطاً لسؤالى قبل أن توافق المحكمة على قبولى بنقابة الصحفيين ..

واغتصبت ابتسامة متوترة :

ـــ موافقة المحكمة كانت شرطاً للقبول فى النقابة ..

ظل الأسيوطى ساكناً ، فأردفت :

ـــ سألنى عن رأيى فى حرب أكتوبر ومحادثات الكيلو ١٠١ ..

ـ ١٢ ـ

خمنت من جلسة محمد الأبيض المسترخية على الكرسى المجاور للباب ، وهو يحتسى القهوة من فنجان بيد ، ويمسك كراسةً باليد الأخرى ، أنه وصل قبلى بفترة طويلة . كنت أنظر إليه ، فأدرك المعاناة التى يقاسيها ، معاناة لا يملك إلاّ اجترارها ، والتفكير فيها . بدا مستغرقاً فى القراءة . لم يلحظ قدومى إلاّ عندما تأثرت الأوراق بظل وقفتى ..

كان الجرسون عبد الغفار يزيل ما على الطاولات من زجاجات وأكواب فارغة وبقايا طعام وعلب سجائر وأوراق ممزقة ..

قلت فى نفسى : هذه الندوة لن يحضرها كثيرون . وزعت أسامة صابر نسخاً من مجموعتها القصصية الأولى . طلبت أن نناقشها فى الندوة التالية . توقعت أن يغيب الشعراء

، فغابوا . إذا حددت موعداً لمناقشة ديوان شعرى توقعت ــ ويصح توقعى ــ أن يغيب كتّاب القصة ..

رفع عيناً متسائلة :

ــ جئت ؟..

وأنا أسحب كرسيا :

ــ مشغول ؟..

ــ أبداً .. أوراق عمل أراجعها ..

شغلنى ما يعانيه ..

كان يفز من جلسته . يمضى إلى الناحية المقابلة . يقف أمام السور الحجرى . يتأمل ما لا أتبينه . أنشغل بالندوة . أفطن إلى عودته حين ألمحه فى طرف الندوة ، يتابع ما يدور . إذا زايله الصمت ، لا يتوقف عن الكلام . يسأل ، ويجيب ، ويبدى الملاحظات ، ويعلن الآراء التى لا يعنيه وقعها ..

أجهدنى الأمر . أتأمل الملامح المنصتة لما يلقى . كيف أتعرف إلى المندس فى الندوة ، يسجل الأسماء ، وما يجرى من مناقشات ؟! . لماذا يراقبنى ، ولا يكتفى بمراقبة الندوة ؟.. يسجل ما يدور فيها من مناقشات ، ويسلمه إلى الجهة

التى يتبعها ؟.. أنا واحد من الندوة ، وإن كنت أتولى إدارتها . مهمتى ترتيب القراءات ، وتنظيم الحوار . آرائى لا شئ إلى جانب آراء فتحى عيداروس ويحيى عباس وقورة إدريس وأسامة صابر . هذه ندوة أدبية لا شأن لها بالسياسة . أرد الكلمات المغايرة ، أو أنبه إلى طبيعة الندوة . أمنع الكلمات المتسللة إذا جاوزت الملاحظة العابرة إلى الانتقاد والمؤاخذة..

حرصت على أن أظل صامتاً ما أمكننى . لا أتكلم إلاّ إذا اتجه الكلام ناحيتى ، ولا أقول ما قد يفسر بغير معناه . وأصبحت أكثر ميلاً إلى الاعتذار عن عدم حضور افتتاح المعارض الفنية والمحاضرات والندوات . اكتفيت بندوة الميناء الشرقية ، فلا أحضر سواها .

قال لى محمد الأبيض :

ــ لماذا كنت تطيل النظر إلى شارع الأهرام فى أثناء الندوة ؟..

أحسست بانقباضة لم أدر بواعثها :

ــ أنا ؟ ..

ــ لماذا أصبحت شكاكاً فى كل الناس ؟!..

أعدت القول :

ــ أنا ؟ ..

ــ أخشى أنك لم تعد تلحظ ما تفعله !..

هل لاحظ المترددون على الندوة ما لاحظه الأبيض ؟..

لم تعد الملاحقة فى القهوة وحدها . النظرات تحاصرنى حتى داخل البيت ، تربكنى ، فلا أستطيع التصرف ــ أو الكلام ــ بحرية . وثمة ــ فى داخلى ــ بتوالى الانتظار ــ قلق دائم ، أحسه ، تشغله التوقعات ، وما يمكن أن يطالعنى . وإن كنت لا أعرف مصدره ولا بواعثه . وكنت قد بدأت فى إلقاء الأسئلة : هل تصل بى هذه الندوة ــ إذا جمعت كل أدباء الإسكندرية ــ إلى القاهرة ؟ هل تنشر الصحف مواعيد الندوات ، وما نقرأه فيها ، وما يدور من مناقشات ؟..

قررت أن أظل فى موضعى ، لا أتركه . أترقب الضربة التى لا أدرى كيف ، ولا متى ، تأتى . الطرقات المتوالية على باب الشقة ، تدخل ــ من بعدها ــ الوجوه التى روى لى عنها محمد الأبيض ، وماذا تفعل . هؤلاء الذين يتبعوننى ، لا أعرف من هم ، ولا أين يترصدون لى . أصحو على طرقات تتعالى على باب الشقة فى أثناء الليل .

انتتر مفزوعاً . أسأل : من ؟ . لا أسمع رداً . أعيد السؤال . يظل الصمت وراء الباب . تفتح أمى باب حجرتها . ترنو ــ وهى تدعك عينيها النائمتين ــ بنظرة متسائلة ، مشفقة :

ــ لعله جار أغلق باب شقته بقوة !

داخلنى قلق لصمت أمى . عيناى تصطدمان ــ بعفوية ــ بعينيها ، تبدوان متأملتين حزينتين ، تحاولان التعرف إلى ما أخفيه ، ولا أفصح عنه . يتناهى إلى وأنا أدخل إلى حجرتى صوت تقلقلها على السرير . أدرك أنها صاحية . تمنيت لو أنها تكلمت ، نصحت ، أبدت الرأى ، رفضت ، صاحت ، شتمت . أى شئ . لا تكتفى بهذه النظرة التى يختلط فيها القلق والإشفاق والحيرة . أتصور ــ لثبات نظرتها المتابعة ــ أنها تعرف كل شئ ..

اللمبة الحمراء أعلى حجرة مكتب المدير ، المطلة على شارع سعد زغلول . لازوار ، ولا تليفونات . حتى النافذة المطلة على سعد زغلول ، يغلقها ، فلا تصل إليه ضجة الشارع . يعزل نفسه عن الدنيا من حوله ليكتب مقالات تافهة . يضايقنى حرصه على أن يقرأ كل أوراق المكتب ، يبدى عليها ملاحظات بالقلم الأحمر ، أقواساً وخطوطاً وعلامات

تعجب واستفهام . حتى الرسائل الشخصية يفضها ، ويبدى ملاحظاته . مادامت قد وصلت إلى المكتب فلا بد أن أقرؤها . هل يكتفى بالقراءة وإبداء الملاحظات ، أو أنه يبلغ بما يقرأه ؟..

حين أعلن سيد حماية ثورته لتلقيه رسالة من قريته بدمنهور ، قال فى هدوء لا يزايله :

ــ إذا أردت الاحتفاظ بما تحويه رسائلك من أسرار .. أطلب من مرسليها أن يبعثوا بها إلى البيت !..

قبل أن تنتقل الندوة إلى قهوة المينا الشرقية ، همس بالضيق :

ــ ليت المكتب يقتصر على زيارات العمل ..

علت فى داخلى موجات الغضب . لم أتدبر القول :

ــ هذا مكتب جريدة وليس مصلحة حكومية ..

حين دخلت الحجرة الواسعة المطلة على ميدان سعد زغلول ، ظلت عينا فاروق أبو سليم على الورق . تظاهر بأنه لم يرنى . مضيت إلى مكتبى . لم ألتفت ناحيته . بدا الأمر كما لو أن أحدنا لم ير الآخر ، أو أننا غريبان . كنت أتوقع أن يجندوه ــ أو أى أحد داخل الجريدة ــ لمراقبتى .

من أستقبل ؟ ومن أحادث فى التليفون ؟ وماذا أقرأ ؟.. تضيق دائرة المراقبة . وكنت أعيد قراءة الموضوعات التى أبعث بها إلى إدارة الجريدة بالقاهرة . ربما تتفحصها عين منتبهة . لا أخوض فى القضايا القريبة من السياسة ، وأحذف ما يحتمل التأويل ..

قلت لمحمد الأبيض :

ــ قررت إلغاء الندوة ..

مال بأعلى صدره إلى الوراء ، بتأثير المفاجأة ..

خرجت الكلمات مبحوحة :

ــ ما الذى يدفعنى إلى الحياة فى التوتر ؟..

أطلق من أنفه ضحكة قصيرة :

ــ وهل ترى أنك بهذا التصرف قد أنهيت الأمر ؟!..

وأنا أحاول تفادى النظر إليه :

ــ تنتهى الندوة فلا شأن لهم بى ..

أدار نحوى ملامح مندهشة :

ــ من أخبرك ؟.. تنتهى الندوة ولكن ملف الندوة سيظل مفتوحا! ..

وربت صدره :

ــ أذكّرك بنفسى !..

وزم شفتيه فى تفكير :

ــ سيتصورون أن ما تفعله فى العلن سينتقل تحت الأرض ..

ونقر بإصبعه على حافة الطاولة :

ــ نصيحتى أن تظل الندوة .. وتظل مناقشاتنا بعيدة عن السياسة ..

وخرجت الكلمات من فمه متلكئة :

ــ أنا الآن صاحب تجربة .. وتجربتى تقول إنك ما لم تنضم إلى تنظيم فلا شأن لهم بك ..

ــ تنظيم ؟!..

مال بأعلى صدره ناحيتى :

ــ إنهم يفوّتون الكلام .. ولكن لا يتسامحون مع من يشكّل تنظيماً ..

ثم وهو يحك ــ فى حيرة ــ مقدمة رأسه :

ــ لن يجهدوا أنفسهم فى التأكد مما إذا كنت قد اكتفيت بإلغاء الندوة !

* * *

هل تكون سنية عبد المحسن ؟..

قفز الاسم كالمفاجأة . ألأنها امرأة لا تكتب التقارير ؟..

من يدرى ؟!

بدت مهمومة ، وصامتة . تحتضن الطفل ، تنيمه على صدرها ، تلقمه ثديها بعد أن تواريه بإيشارب الرأس . فى حوالى الثانية والعشرين ، وجه خلا من التزويق . فى وجنتيها غمازتان تبتسمان مع ابتسامتها الدائمة . ترتدى فستاناً بسيطاً ، وحذاء بدون كعب ..

خمنت من نظراتها المتلفتة ، وصمتها ، أنها حديثة العهد بالندوات . وحيدة . لم تمل على جارها بسؤال ، ولا تبادلت الكلمات الهامسة ، وإن انشغلت بالطفل الصغير ..

عندما رفعت يدها فى الأسبوع الرابع تطلعت إليها بلهفة متسائلة . وكان لها قدرة فى تناوب الضحك والبكاء . تتأثر بما تنصت إليه ، فتبكى ، وتجد ــ فى قراءة تالية ــ ما يستدعى الضحك ، فتضحك . يفرق بين الحزن والفرحة ما تلتمع به عيناها اللتان تدمعان دوماً ..

قالت :

ــ أقرأ قصيدة ؟..

فى لهجة ترحيب :

ــ أنت إذن مبدعة ؟..

ــ مجرد محاولات ..

ــ اسمك ..

ــ سنية .. سنية عبد المحسن ..

ــ من الإسكندرية ؟..

ــ من كفر الدوار .. أقيم عند خالى فى كرموز ..

ــ طالبة ؟..

ــ دبلوم تجارة .. وأعمل فى مصنع بالقرب من البيت..

وأنا أشير إلى الطفل فى يدها :

ــ متزوجة طبعاً ..

سألت ونحن نسبق الجميع :

ــ أين تسكنين الآن ؟..

ــ بحرى ..

ــ أين ؟..

ــ فى شارع الحجارى ..

ــ هذا طريقى .. فأنا أسكن بالقرب من أبو العباس ..

فاجأتنى ونحن نميل فى شارع إسماعيل صبرى :

ــ هل تحب التمشى ؟..

ــ والطفل ؟..

ــ هميس .. لا يرهقنى حملها ..

ــ أرحب .. وإن كان الوقت متأخراً بالنسبة لك ..

ارتعش صوتها بالانفعال :

ــ الليل غول أترقبه .. وأخافه ..

حدجتها بعينين يطل منهما الحذر :

ــ لماذا ؟..

أنصت بالذهول : تغلق باب الشقة ، تطمئن إلى إغلاق النوافذ والبلكونة المطلة على شارع حسن باشا عاصم ، تضئ الشقة كلها ، وتدخل حجرة النوم . تظل جالسة على السرير . تحاصرها الوحدة والخوف . نظراتها تتلفت ، تتأمل ــ بلا وعى ــ تكوينات الطلاء المتساقط فى السقف والجدران ، وتسرح فيما لا يشغلها تبينه ، حتى تروح فى النوم ..

الصالة أقرب إلى الاستطالة ، تضم كنبة وستة فوتيلات من طراز الستيل الفرنسى ، أخذت هيئة الحدوة ، أو الدائرة

الناقصة . وتوسطت الحائط لوحة طلى إطارها باللون الذهبى لأطفال يعدون على عشب أخضر صوب الأفق ..

مضت بالطفلة ــ نائمة ــ بين يديها إلى الحجرة الثانية ، ثم عادت ..

حين دخلت الحجرة المجاورة ، المقابلة للصالة ، أضاءت النور . فى المواجهة سرير معدنى ، ودولاب صغير بضلفتين ، ووضعت على حامل خشبى طويل زهرية يابانية مزينة بنقوش دقيقة ..

تركت الباب مفتوحاً ، ومالت ناحية اليمين ..

خمّنت أنها تحضر شيئاً ، لكن تماوج اللمبة المدلاّة من السقف والظل المتطاير وشى باستبدال ملابسها . صر الباب لاستنادها عليه . كانت قد تخففت من ملابسها . لم يبق على جسمها سوى قميص من الساتان الأزرق ، وكانت حافية ..

جلست على الكرسى الأسيوطى ، وأشارت إلى الكرسى المقابل ..

لم أسألها وإن أصخت إليها : اقتنعت بأنها لا تحتاج إلى مواصلة التعليم العالى ، فالثقافة ميسورة بالقراءة ، تقرأ ما

تريده وليس ما تفرضه الكتب الدراسية ، تعمل وتقرأ ، فتعوض توقفها عن التعليم ..

ــ حتى الإنجليزية أجدتها بما ساعدنى على التكلم مع زوجى ..

أضافت للتساؤل فى عينى :

ــ يوهانسن سويدى .. يعمل مراسلاً لليونانيتد برس فى الشرق الأوسط ..

تلفت ــ بتلقائية ــ حولى :

ــ وأين هو ؟..

ــ عمله ليس فى مصر وحدها ..

لاحظت تهيئى للانصراف ، فأودعت صوتها نبرة استغاثة :

ــ ابق معى ..

أهملت نظرتى المندهشة ، واستطردت :

ــ أخاف أن أنام بمفردى ..

قلت فى دهشتى :

ــ ولماذا تسكنين بمفردك ؟..

ــ إنها الشقة التى كنت أحيا فيها مع زوجى ..

ثم وهى تشوح بيدها :

ــ عاد إلى السويد ..

وتسربت إلى صوتها رنة أسى :

ــ لم نتخاصم ولا طلقنى ..

أردفت وهى تهز رأسها :

ــ وعدنى بالعودة قبل شهرين .. لكنه تأخر قليلاً !

ــ هل راتبك يكفيك ؟..

جرت بإصبعين على جبهتها تمسح حبات عرق نبتت فوقها :

ــ لى وديعة فى البنك يساعدنى عائدها ..

وجاشت نفسها :

ــ أنا حتى الآن على ذمة زوجى ..

ونشرت ذراعها فى ترحيب :

ــ لا توجد مواصلات عامة بعد منتصف الليل .. تستطيع قضاء الليل فى الصالة ..

عادت إلى الحجرة ..

لاحظت أنها لم توصد الباب . توقعت أن تطفئ النور ، لكنها تركته مضاء . اتجهت إلى السرير ، وتمددت عليه . تغطت بملاءة بيضاء ، وإن أطل من طرفها باطن قدميها ..

تناهى صوتها :

ــ تستطيع النوم فى حجرتى أو على كنبة الصالة ..

استطردت بنبرة ملونة ، دون أن تتبين رد الفعل فى ملامحى :

ــ لكننى لن أسمح لك بتعذيبى ..

أدهشنى قولها ..

تصورت أنى سألتقى بها فى الأيام التالية ، بعيداً عن قهوة " المينا الشرقية " . أعرض عليها أن نصبح صديقين . لم يخطر فى بالى إلاّ أن نلتقى ــ أحياناً ــ نتكلم ، نتمشى فى الشوارع الهادئة ، أستضيفها فى كافيتريا أو كازينو ، لكننى لم أفهم ــ وإن استهوانى ــ قولها إنها لن تسمح لى بتعذيبها ..

تأملت المعنى : هل تكون هى التى ؟.. هل هى جزء من لعبة المراقبة ؟.. هل دسّت علىّ للإيقاع بى ؟.. كان الخوف يستولى علىّ دائماً ، لأقل سبب ، وبلا سبب . وكنت

أعانى وحدة قاسية . أتظاهر بالإنصات ، بينما أحيا فى جزر قريبة ، وبعيدة . ما يشغلنى أن يحسم الأمر ، وأنتهى منه على أى نحو . تنقضى تراكمات القلق والخوف والتوقع ..

تزاحمت الأفكار فى رأسى ، وتقاطعت الكلمات ، وارتبكت ..

ــ لا تخافى من النوم بمفردك .. فالصغيرة تؤنسك ..

أردفت وأنا أعانى ما يشبه اللوم لأنى أسلمت نفسى لما لا قبل لى على مواجهته :

ــ إن شعرت بالخوف .. أضيئى نور الشقة ..

وأدرت مقبض الباب بيد متلهفة ..

ـ ١٤ ـ

لا أدرى من تحدث إلى من عن اصطحاب سنية له إلى شقتها ؟..

مال فتحى عيداروس على أذنى بالهمس . روى ما استعدته . أدركت أنها تصطحب واحداً من الندوة عقب انتهائها . لو أنى أمضيت تلك الليلة فى الشقة . هل كانت تروى ما حدث ؟ وكيف كنت أواجه الموقف ؟..

قال فى همسه :

ـ سنية ضحية لنادر البقال .. كان البداية ..

استعدت الإسم :

ـ نادر البقال ..

ـ كانت تأتى إلى القهوة قبل أن تبدأ الندوة ..

كان يهمه أن تكون عنده أسرار ينقلها إلى الآخرين . يحرص على تسمع الأسرار ، وينقلها إلى من يصادفه . لا

يشغله ماذا ينقل لمن ، مجرد أن يعلن عن أسرار عرفها قبل غيره . ذكر الاسم طرف خيط يكرّه بحكايات لا تنتهى . وكان يحرص على تأكيد معرفته بأدق شئون من يتكلم عنه . يذكر أسماء وعناوين ووقائع . يحاول أن يجتذب انتباهنا بعبارة يمهد بها لكلماته : هل عرفتم ما حدث ؟ هل كان أحد يتصور ؟ هل هى نهاية العالم ؟.. فإذا اطمأن إلى جذب الانتباه بدأ فى الكلام ..

من يلتقى به ــ للمرة الأولى ــ يكلمه باسمه مجرداً ، كأنه يعرفه منذ زمن ، وإن بدا على ثقة أن للآخرين طبيعة خاصة تبين ــ إذا خالفوه ــ عن نفسها . وكان ذا قدرة على تقليد ما يسمعه ، ومحاكاة نفس الصوت . إذا غلبه القلق ، أو التوتر ، جرى أصبعه ــ بتلقائية ــ فى مؤخرة رأسه ..

* * *

لاحقتنى سنية عبد المحسن ، وأنا أميل من قهوة المينا الشرقية إلى بحرى :

ــ أرحب بك لو زرتنى كل ليلة ..

ثم قالت بأسف :

ــ لن أفعل ما يضايقك ..

كنت أتابع انفعالاتها وهى تحدثنى عن الوحدة التى تعانيها بلا عائلة ، ولا أسرة ، فيما عدا الطفل :

ــ ماذا أقول لأبى وأنا أحمل طفلة بلا أب ؟..

ــ أليس لها شهادة ميلاد ..

ــ زواجى من يوهانسن كان عرفياً ..

ــ والبنت المسكينة ؟..

فى همس متصعب :

ــ أملى فى المستقبل ..

لم تحدثنى عن نادر البقال ، وتعمدت ألاّ أسألها عن علاقتها به . اكتفيت بالإنصات ، وإن ظلت ملامح نادر البقال فى ذهنى ، لا تتركه ..

لم تعد تطيق الحياة فى الشقة . تعود إليها فى المساء لتعانى الوحدة ، وحدة قاسية لا يملأها بكاء الطفلة وانشغالها بها . يشقيها غياب الدفء الذى يتمتع به كل الناس داخل بيوتهم . ليالى الخوف والوحشة . ربما اندفعت فى البكاء ..

تساءلت ــ بينى وبين نفسى ــ وأنا أمضى فى ظلام شارع حسن عاصم : لماذا أتعاطف مع الفتيات وقد خانتنى امرأة ؟!..

***

كيف بدأ الأمر ؟..

لا أتذكر على وجه التحديد . كانت شفتاه فى ثديها عندما أطال قضم الثدى برفق . بدا لها الأمر شوقاً إلى حضنها . تنبه لصرختها المتألمة ، ففتح شفتيه معتذراً . لاحظت أنه يخنقها بساعديه ، لا يرفعهما إلاّ إذا تأوهت أو صرخت . تدفعه بيديها . النظرة الطيبة القديمة تطل من عينيه ، وإن التمعتا ببريق لم تشاهده من قبل ..

كان يوهانسن يحجم عن اللجوء إلى الضرب . إذا نزلت راحته على وجهها فإنها تخلى السبيل ليديه وقدميه ، وربما رأسه وركبتيه ، وكل ما يستطيع أن يصل إليها من جسمه ، يضرب كيفما اتفق ، بتلاحق ، وبعنف وقسوة ، لا تشغله التوسلات ولا الصرخات ولا الأنين . يصبح أتوناً يتقد بالعنف والغضب ..

قالت فى استسلام :

ـــ الآن .. ليس فى حياتى أحد ..

ـــ هل قاطعت أهلك ؟..

ـــ المسألة ليست مقاطعة ..

وداخل صوتها أسى :

ـ حتى لو قدمت لهم وثيقة زواج فلا بد أن يسألوا : أين زوجك ؟..

***

علا صوت فتحى عيداروس ، فذوت الهمسات المتشابكة :

ـ أعترف أن علاقتى بالشعر ضعيفة ..

قال يحيى عباس :

ـ لكنك تنتقد ما يلقى من قصائد ..

قال فتحى عيداروس :

ـ مجرد التعبير عن تذوقى لها ..

وربت الكتب التى وضعها يحيى عباس على الطاولة :

ـ هل هذه دواوين شعر ؟

ـ لماذا تصورت ذلك ؟

ـ ألاحظ أنك تكتب الشعر ولا تقرأ إلاّ فيه ولا تستمع إلا إلى القصائد ..

ـ أنا أقرأ فى كل ألوان المعرفة ..

ـ هذا شأن أبناء رأس التين .. يعرفون كل شئ !..

ــ نحن رأس التين .. لكثرة أشجار التين الممتاز .. أما كرموس فمعناها التين السئ ..

بدت علاقتهما غريبة ، فهى موزعة بين الود والتحدى والمشاكسة . كانت المناقشات بين الإثنين تعلو ، وتتسم بالحدة . ربما عاب أحدهما على الآخر ما يدين أخلاقه ، لكنهما يظلان صديقين . .

قلت :

ــ كأن أحدكما يبحث عن الآخر ليهاجمه ..

قال يحيى عباس :

ــ هو وغد .. لكنه صديقى !..

قال نادر البقال :

ــ وانا اللى جيت م السيالة .. فيها العيال والرجاله .. شجعان ولكن بهباله .. يا ننتصر .. يأكلناها ..

قلت :

ــ لا تدخل فى شتائمهما .. ودع بيرم التونسى فى حاله..

كانا يلتقيان ليختلفان . يتعايران ، ويلمزان ، ويتشاتمان ، وإن بدت كلمات يحيى عباس أقل حدة . تبعد المناقشات

عن محاولة إبداء الرأى والفهم والتأثير . تذكرنى بما قرأته عن منافرات العرب القدامى : أنافرك وأنت كذا وأنا كذا .. أشبه بالمبارزة الكلامية ، لا تأذن إلاّ بأن ينتصر صاحب أحد الرأيين . ليس المهم أن ينتصر الرأى . المهم أن ينتصر كل منهما لرأيه . إذا تأخر أحدهما عن القهوة سأل الآخر : أين فلان ؟..

كانا فى سن متقاربة ، لم يبلغا الثلاثين ، أو يقفان على عتبتها . يختلفان فى قامة يحيى عباس الطويلة ، وشعره الغزير تهدل على جبهته وصدغيه ، بينما فتحى عيداروس أقرب إلى القصر ، له جبهة عالية ، أضاف إليها زحف الصلع . ويحيى بلا شارب . أما فتحى فقد تدلى شاربه الكثيف عند جانبى فمه ..

***

روى لى يحيى عباس إن فتحى عيداروس يتردد عليه فى البيت . يقضى الساعات فى القراءة . ربما أمضى الليل عنده ، فهو لا يستطيع القراءة فى بيته لضيق الشقة وكثرة أخوته . كان عباس يستريح إلى عيداروس ، لا يشعر بثقل منه ، يتركه فى الشقة ، يثق أنه سينظفها ويعيد ترتيبها .

ألف ارتداءه لقمصانه ، ثم يعيد غسلها وكيّها ، ويعيدها إلى موضعها فى الدولاب . وكان يعتمد عليه فى صنع الشاى ، وربما أعد المكرونة التى يجيدها ..

أكلنى القلق :

ــ ولا تنابذوا بالألقاب ..

وحمّلت لهجتى بالضيق :

ــ هذه منافرة ..

قال فتحى عيداروس :

ــ لا بأس .. فهى من الأدب الجاهلى ..

استطردت :

ــ لسنا فى الجاهلية ..

تنهد يحيى عباس :

ــ من يدرى ؟!..

مع أن يحيى عباس لم يتخرج فى الأزهر ، ولا أنهى دراسته ، فإنه كان يبدو ملماً بأحكام الصلاة والطهارة ، ملماً بالفقه والشريعة . ظل فى المعهد الأزهرى بالورديان ثلاث سنوات . اكتفى بما حصله ، وأقبل على القراءة والكتابة ، وأخذ نفسه بالرياضة والخشونة . وكان يعتز بأنه قرأ ألفية

ابن مالك ومجموع المتون والجوهرة والخريدة والسراجية والرجبية ولامية الأفعال وشرح الكفراوى والأوجه التسعة لقراءة بسم الله الرحمن الرحيم وإعرابها . ولم يكن لسانه يتوقف عن تلاوة آيات القرآن والأدعية ، وأوراد من حزب الشاذلى . وكان يترك الندوة عقب الأذان . يؤدى الصلاة ، ويعود ..

وشى صوت أسامة صابر بنبرة سخرية :

ــ يحيى يمثل كل اتجاهات الشعب المصرى .. يحرص على فروض الدين ، ويكره أمريكا ، وينادى بالتقدم ..

قال فتحى عيداروس :

ــ أنا أعجب .. كيف لمثقف أن يؤمن بالغيبيات ؟..

قال نادر البقال :

ــ الناس لا يطيلون لحاهم فى مصر وحدها .. إطلاق اللحية ظاهرة فى كل الدنيا ..

إتجه يحيى عباس إلى فتحى عيداروس بنظرة ساخطة :

ــ أنا لا أناقش رفضك للأديان .. فلماذا تصر على أن تناقش تديّنى ؟..

* * *

ــ هل تستضيفوننى فى ندوتكم ..

قام منسّى نصر من مجلسه وقال فى لهجة مرحبة :

ــ الدكتور زكريا عبد الباسط .. أستاذنا فى كلية الآداب ..

فى حوالى الخمسين . رسمت له صورة من الكلمات التى قيلت عنه . زملاء الندوة ــ من طلابه ــ رووا عن بساطته فى التعامل ، وميله إلى مصادقة الطلاب ، وحسبوا له إصراره على عدم بيع الملازم ، وإن حرص على إضفاء الغموض حول نفسه . أحاط ــ بأسوار عالية ــ مساحات الصمت من حوله ، وأسرف فى كتم ما يتصل بحياته الشخصية ، حتى الجوانب التى يتنسب إعلانها إلى العادى والمألوف ..

عرفت أنه قد أصدر أكثر من عشرين كتاباً ، وإن لم أكن قد قرأت له سوى مقالة فى مجلة " الهلال " تنتصر للتقليدية فى الفن ، وترفض نظريات ما بعد الحداثة . وكان يحرص على المشاركة فى الحلقات الدراسية والندوات العامة ، يسأل ، ويعلق ، ويناقش ، ويثير المداخلات . لم يتزوج ،

ويحيا فى عزلة داخل شقة تطل على ترام الرمل وجامع القائد ابراهيم وحديقة الخالدين وامتدادات الأفق فى الميناء الشرقية ..

اجتذبنى فى النقاش ــ الذى كان قد بدأ ــ قول الدكتور زكريا عبد الباسط :

ــ بصراحة .. أنا ضد انشغال الطلاب بغير العلم .. إذا أرادوا التغيير فإن الترويح عن أنفسهم فى مثل هذه الندوة مجال طيب ..

لاحظت انعكاس كلمة " الترويح " على الملامح المتابعة . هل هذه هى صورة الندوة فى عينيه ؟ هل هى لمجرد الترويح عن النفس والتسلية ؟..

قال يحيى عباس :

ــ أعرف يا دكتور انك تبدع الشعر .. فهل هو عندك للتسلية ؟

لم يبد أنه تخلى عن هدوئه ، ولا استجاب للاستفزاز . قال :

ــ أنا أكتب الشعر فى غير أوقات الجامعة ..

قال رأفت الجارم :

ــ أعرف أنك تجمع بين التدريس فى الجامعة والعمل السياسى ..

قال فتحى عيداروس :

ــ للدكتور زكريا آراء ضد اليسار .. ضد الشيوعية تحديداً ..

قال زكريا عبد الباسط :

ــ أنا لم أتعرف فى اقترابى من الحياة السياسية إلى شيوعيين أو غير شيوعيين ..

قال قورة إدريس :

ــ ما أعرفه أن مصر المحروسة فيها انتهازيون .. وفيها من لا يجيدون الانتهازية .. ولا شئ ثالثاً !..

قلت لنفسى : لو أن الرجل استمع من فتحتى أنفه الواسعتين ، بدلاً من أذنيه ، ربما لا يحتاج إلى الطلب من محدثه أن يعيد ما قال ..

قال زكريا عبد الباسط :

ــ أنا ضد التشدق بالشعارات التى لا تعنى شيئاً ..

قال يحيى عباس :

ــ لا أحب الكلمات المصادرة ..

ـــ أنا لا أصادر .. إنما أعبر عن رأيى ..

لاحظت أنه لم يتخل عن هدوئه ، ولا خضع للانفعال . وكان يميل إلى المداعبة . ربما لجأ إلى الكناية والتشبيه والتورية . وصف محمد الأبيض بأنه حاجبان ، ثم تأتى بقية التفاصيل ، ولكن وجهه كان ينطق بالضيق إذا تخللت المناقشات عبارات نابية . يبدو شديد الحرص على نطق الكلمات ، يختارها بدقة ، ويعنى بمخارج الألفاظ ، ويتأمل وقع ما يقوله على الحاضرين ، وإن بدا فمه كأنه لا يتحرك ، والكلمات تخرج من بين أسنانه . وكانت الكلمة عنده لها معنى واحد محدد ..

لم تكن آراؤه ـــ كما بدت لى ـــ تصدر عن قراءات ، ولا عن خبرات الآخرين ، بقدر ما كانت تصدر عن تجربته الشخصية وتأملاته ..

كان رأفت الجارم يقترب بساقه ، يتلمس موضع ساق إيناس عبود ..

بدا كأنها اطمأنت إلى التصاق ساقها بساقه ..

ـ ١٥ ـ

كنت ألحظ تقلقل مجدى ناشد على الكرسى . لا يشغله انتهاء المتحدث من إبداء وجهة نظره ، بقدر ما يشغله التحدث . تكاد تصلنى همهمته ، وبرطمته ، وكلماته المغتاظة . يدفع الجميع ــ بأسئلته وملاحظاته وتعاطفه ــ إلى الإحساس بوجوده . ربما قاطع قراءة النص ، فألقى سؤالاً ، أو أبدى رأياً ، وتعليقاته المعجبة أو المستاءة تلى وقفات الفقرات . لم أكن على ثقة من أنه يستوعب ما يستمع إليه تماماً . يبدو كأنه يخوض ــ فى نفسه ــ وأمامنا ــ معركة لإثبات الوجود : أنا أكثركم علماً وثقافة .. لكننى لا أحصل على الفرصة ، فأعبر عن ذلك . لم يكن يقتنع إلاّ برأيه . يعلو صوته لتأكيده . وربما لجأ إلى عبارات قاسية ليسكت محدّثه . وكان يجيد سرقة الحديث ، فيديره حول نفسه : أنا فعلت .. أنا أذكر .. أنا أحب .. أنا أرفض ..

يشغله أن يكون محور الكلام ، كطفل يضايقه انصراف أهله عنه ، ربما يبكى لشد اهتمامهم . يتعمد رفع صوته فوق بقية الأصوات ، وتتلاحق كلماته ، فلا يعطى الفرصة للمقاطعة ، ولا لإبداء الرأى المعارض . ربما لمح طرف خيط بداية الفكرة فى رأى ، فيلتقطه . يكرّه ، وينسبه لنفسه . وكان يستطرد فى رأيه ، يتصور أنه لم يكن واضحاً فيما قاله ، أو أنه لم يحسن عرضه ، فيستطرد . ربما أعاد ما سبق قوله ، وربما مضى فى انحناءات وتعرجات ، تضع كلماته خارج الندوة . يحل اليأس من التقاط طرف الخيط ، فيصبح متكلماً وحيداً ، ونكتفى بالإنصات . وكان يضايقنى أنه يثبت نظرته ناحيتى ، لا يحولها ..

كان ينتقد كل شئ ببساطة : الحكومة ، والجامعة ، وسلطة الآباء . لا شئ يغيب عن كلماته ..

رمقنى بنظرة غاضبة حين رفع يده ، ولم أعطه الكلمة . حين أشير إليه ــ بالحرج ــ يبدأ ولا يتوقف . كل ما يفد إلى خاطره يرويه . ربما مال إلى هوامش وحواشى لا صلة لها بالقضية التى نناقشها . تتناثر أسماء أدباء ومفكرين ومذاهب وتيارات . أدرك أنه يريد اجتذابنا بما يحمله من

ثقافة . وكان يبهرنى بالتفصيلات الدقيقة التى يحشو بها أحاديثه . لا أدرى إن كانت حقيقية ، أم أنه أضاف إليها من خياله ..

لا أدرك السبب الذى يباعد بيننا ، شئ ما يطل بالنظرات المتوجسة من أعيننا . كان يكرهنى ، وكنت أبادله شعوره ..

لمحته داخل قهوة ملاصقة لقهوة الريحانة ، ويفصل ممر بينها وبين قهوة المينا الشرقية . كنت أعبرها بنظرتى وأنا أمر بجوارها فى طريقى إلى القهوة . توقفت ، وأعدت النظر :

ــ أهلا يا أستاذ مهدى ..

أمامه زجاجة صغيرة حمراء اللون ، وطبق عليه ترمس وقطع من الجبن وزيتون وخيار مخلل ..

وامتلأ وجهه بنظرة ترحيب دافقة :

ــ يوجد شاى وقهوة ..

وغمز بعينه :

ــ ومشاريب أخرى ..

المكان واسع ، يرتفع سقفه بما يساوى طابقين أو أكثر ، تقشر طلاء الجدران ، وانتشرت الشقوق والخطوط المتعرجة ، وثمة ــ فى المواجهة ــ " بنك " بامتداد الجدار والمرآة الهائلة المستندة إليه . وقف وراءه نوبى حركته دائمة بين غسيل الأطباق والأكواب وصب الزجاجات والبرميل . وجلس ــ بالقرب من الباب ــ أربعة رجال يبدو ــ من سحنهم وملابسهم ــ أنهم يعملون فى مهن صغيرة ، يتمايلون على الطاولة الرخامية ، ويغنون . تخفت أصواتهم بالدندنة ، وتعلو وتعلو ، يرافقها تصفيق . وثمة ماسح أحذية يتابع ما يحدث ، ثم يتنبه فيدق بفرشاته على الصندوق : تمسح ..

أدركت سر الرائحة الغامضة ، الفجة ، التى كانت تنبعث من فمه وهو يقرأ قصيدة له ، أو يناقش ..

هل يكون هو الذى ؟..

السكير ــ أعرف ــ يبوح بما يكتمه فى ساعات الإفاقة . الخمر ــ إذا تحكمت به ــ ستدفعه إلى الاعتراف والفضفضة . ربما اقتحم مناطق ، لم يتصور هو نفسه أنه يدخلها . هل هو العين التى تنقل ما يدور فى الندوة ؟..

أشار إلى الزجاجة على الطاولة :

ــ تفضل ..

ثم بلهجة محرضة :

ــ هذا زبيب قبرصى أصلى ..

وأعاد الكوب الصغير إلى الطاولة ، ومسح بإصبعه جانبى فمه :

ــ أنا أميز الخمر الجيدة بمجرد رؤيتها .. لا أحتاج إلى تذوقها ..

خمنت أنه أسرف فى الشراب من عينيه الحمراوين ، ووجهه المحتقن ، ورائحة الخمر المنبعثة من فمه . وكانت الأصوات قد تعالت بالغناء فى استمتاع ونشوة ..

هززت رأسى دلالة الفهم :

ــ أنا لا أشرب سوى الشاى بالحليب ..

رمقنى بنظرة ، أربكتنى :

ــ ثم تأكل أرزاً مع الملائكة !..

فاجأنى بالقول :

ــ هل لك صلة بإدارة التفرغ ؟..

ــ إنها فى القاهرة .. ونحن فى الإسكندرية ..

أضفت متسائلاً :

ــ لماذا ؟..

ــ أوقفوا منحة التفرغ بعد سنة واحدة ..

وافترت شفتاه عن بسمة متعبة :

ــ وعدت بمشروع وقدمت اثنين .. لكنهم أوقفوا المنحة..

ثم وهو يدير الكوب الصغير فى راحته :

ــ قدرت أن المنحة ستمتد ثلاث سنوات ..

وغلبه ما يشبه النشيج :

ــ لا تفرغ .. لا وظيفة .. والأقساط تتراكم ..

ــ عد إلى وظيفتك ..

غلبه الانفعال :

ــ قلت لك لا وظيفة ..

وصخب فى داخله صوت لم أتبينه :

ــ حصلت على التفرغ فتزوجت .. أعددت نفسى لثلاث سنوات تأتى خلالها الوظيفة ..

احتضنته بنظرة مشفقة :

ــ والحل ؟..

ــ الحل هو المنكر !

وأفرغ الكوب فى جوفه دفعة واحدة . ثم مسح شفتيه بظهر يده ..

***

كان يغلبنى الضجر . أنزل إلى الشوارع ، لا يشغلنى أين تمضى بى قدماى . أتأمل ما لا أنظر إليه جيداً ، ولا أتذكره . ألمح من نافذة الأوتوبيس الواقفين فى النوافذ والشرفات المفتوحة . تطول نظرتى إلى سيدة جاوزت الستين ، ممتلئة الجسم ، ترتدى فستاناً من البوبلين المنقط ، وتسند مرفقها إلى السور فى هيئة التى تنتظر . تداخلنى رغبة لا أدري بواعثها ، أن تكون هذه المرأة أمى . يطول انتظارها بالقلق . تفطن لاعترافاتى الكاذبة ، وتسكت فلا تحرجنى . ألوذ بصدرها من توقعات أخمنها ، وإن أهملتها . تعرف أنى أحب الكتابة ، ولا أحب الوظيفة . التفرغ ومضة غابت فى المدى ..

قلت لى :

ــ هذه رغبة فى الارتداد للطفولة ..

ــ أنا لا أعانى شيئاً يدفعنى إلى العودة لطفولتى ..

غلبتنى الحيرة :

ـــ ماتت أمى قبل أن أبلغ العاشرة .. فهل هذا هو السبب ..

قلت لى :

ـــ ربما !..

تلون صوتك بالدهشة :

ـــ ولكن ما شأن وفاة الأم برفضك للوظيفة ..

ـــ الوظيفة هى التى ترفضنى .. تكرر رسوبى .. مزق أبى ما كتبته فهجرت البيت ..

وكتمت رغبة ملحة فى البكاء :

ـــ ماذا تتيح لى الإعدادية ـــ لا ترو للآخرين ـــ إلاّ أن أصبح ساعيا ؟!..

* * *

أدركت أن كلمات مجدى ناشد المستفزة ، ليست تعبيراً عن كره لى ، إنما هى محاولة لتقديم نفسه بالمغايرة ..

داخلتنى رغبة فى أن أكون أكثر قرباً منه ..

كان معظم زملاء الندوة يرتاحون إلىّ على نحو ما . ذلك ما ألحظه ، وأحرص عليه . يصارحوننى بما يشغلهم ، يبوحون لى بأسرارهم ، حتى الأسرار الشخصية . يبين

الشعور بالألفة فى التحدث بعفوية ، وعدم اختيار الكلمات . ربما لا ينتظر المتكلم رداً على سؤاله ، يكتفى برواية ما حدث ، وتغيب لهفة طلب النصيحة ..

قال لى محمد الأبيض إن رانيا تخلت عنه . قبلت الزواج من تاجر أدوات كهربائية بشارع صفية زغلول ..

قلت فى لهجة مشاركة :

ــ ربما أجبرها أبوها على الزواج ..

أدار نحوى ملامح غاضبة :

ــ كان يمكنها أن ترفض .. فات زمن إجبار البنت على شئ ترفضه !..

وقال لى يحيى عباس أن منسى نصر ومسعود عبد الرحيم يقيمان فى حجرة مفروشة بفيكتوريا. لم يكن معهما إلا عشرة قروش . تنازل مسعود عنها لمنسى حتى يأتى الندوة ! . وقال لى نادر البقال إن عاطف إمام اقترض منه ثلاثة جنيهات ، ويتهرب من إعادتها . وقالت لى علية ثروت إنها شتمت عاطف إمام لما قدم لها روشتة كتبها له الطبيب بأدوية مهدئة . وقال لى فتحى عيداروس إن رأفت الجارم لا يكفيه راتبه من التدريس فى مدرسة إعدادية . هو يعد رسائل

الماجستير والدكتوراه لأبناء ناس مهمين ، ولطلاب عرب . يشترون له كل ما يطلبه من مراجع ، ويضاعفون الأجر الذى يتفقون عليه إن نالت الرسالة تقدير امتياز . وقال لى محمد الأبيض إننا نجامل مجدى الأسيوطى ، وإن قصصه سخيفة ..

كانوا يخصوننى بأسرارهم الصغيرة ، ربما لمجرد أنى أترأس الندوة ، أو لأن ما أنصت إليه يظل فى داخلى ، أو لأن الإنسان يميل ــ عادة ــ إلى الفضفضة . ولأنى أحسن الإنصات فقد صارحونى بما فى نفوسهم . حتى من كنت أتصور كراهيته لى ، أسلم نفسه للبوح .. لكن القلق ظل يناوشنى . يشبه الإحساس بالتوقع ، أو ترقب ما يدرك كنهه ..

***

فى لحظات بدا فيها مجدى ناشد صديقاً وودوداً ، جاوزت التردد فى داخلى . أخشى أن يشيع الأمر فتفسد الندوة . قفزت ــ فى مجازفة ــ فوق الأسلاك الشائكة :

ــ هل تظن أن ندوتنا مراقبة ؟..

مال برأسه إلى الوراء :

ــ مراقبة .. لماذا ؟..

ــ أعرف أن كل الندوات مراقبة ..

اتسعت عيناه بالدهشة :

ــ وما يهمنا نحن ؟.. نحن نتحدث فى الأدب لا فى السياسة !..

* * *

صعدت الدرجات الرخامية البيضاء ، المفضية إلى صحن أبو العباس . مضيت فى الصحن ــ الواسع ، المكسو بالسجاد ، يتدلى النجف من سقفه ، وتتماوج أشعة الشمس من مساقط الزجاج الملون ــ بين المصلين ، والساعين إلى المقام ، والذين تناثروا لصق الجدران ، أو الأعمدة ، لتلاوة القرآن ، أوالقراءة ، أو المذاكرة ، أو يخوضون فى أحاديث هامسة . أصداء الأصوات ، المبتهلة والذاكرة والداعية والمكبّرة ، تصطدم بالجدران العالية ، والأعمدة الرخامية الهائلة .

كان آخر ترددى على الجامع حين دخلت الكلية . قبلها ، أيام المذاكرة فى صحن الجامع والموالد وحلقات الذكر ودرس المغرب وصلاة الجمعة ..

وقفت أمام المقام ذى الكسوة الخضراء . غبت عن النسوة الملتفات حول المقصورة النحاسية ، يقبّلنها ، ويكنسن حولها ، ويهمسن بالأدعية والمدد ، ويغترفن من الهواء المحيط . حاولت أن أستدعى آيات من القرآن ، ودعوات . اختلطت الكلمات فى رأسى ، وتشوشت . همست :

ــ يا سيدى المرسى !..

ـ ١٦ ـ

واجهنى نادر البقال بما لم أتوقعه ..

كنت أعيد قراءة أوراق فى جانب القهوة المطل على شارع الأهرام الجانبى . حيا نادر ، وجلس . تعمدت أن يكون المظروف فى يدى مفتوحاً ، فأتعرف إلى من يحاول تخمين ما بداخله ..

فاجأنى بالقول :

ـ أنت تظلمنى ..

ضربت صدرى ـ بعفوية ـ بأطراف أصابعى :

ـ أنا ؟..

ـ نعم .. أنا لم أخطئ مع سنية عبد المحسن ..

وتوتر بانفعال :

ـ صدقنى .. كنت جاداً فى خطبتها .. لكنها هى التى ..

وسكت .

لم أكلم سنية فيما حدثنى عنه فتحى عيداروس ، ولا حاولت أن أناقش فتحى فيما قال . اعتبرته معلومة ، علاقة خاصة ، لا شأن لها بالندوة ، فلم أحاول استعادته ..

تنبهت على قول زكريا عبد الباسط :

ـ رأيى أن إسرائيل ليست أشد شراً من بعض العرب ..

كانت الكراسى قد تلاصقت ، وكر طرف الخيط من بداية غائبة ..

استطرد زكريا عبد الباسط :

ـ بصراحة .. العرب فلوس .. والفلوس زائلة .. أما إسرائيل فعلم .. والعلم تقدم ومستقبل ..

صرخ يحيى عباس :

ـ هذا تفسير غير مقبول ..

قال زكريا عبد الباسط :

ـــ لماذا تحتد ؟.. هذا رأى .. لك أن تقبله أو ترفضه ..

فز يحيى عباس من كرسيه :

ـــ أرفض هذا الكلام .. أرفضه تماماً ..

ومضى إلى طريق الكورنيش ..

اختلطت الملامح بالهمسات والأسئلة والأجوبة والقراءات والآراء المناقشة . اقتحمنى الإحساس بالترقب والقلق . علا صوت الطبول فى داخلى ، فكدت أصرخ : من منكم يراقب الندوة ؟.

رسم زكريا عبد الباسط على شفتيه ابتسامة سخرية :

ـــ الرفض .. هذا ما نملكه ..

ونظر إلى الملامح الساكنة فى توقع لردود الأفعال :

ـــ لماذا انفعل ؟.. أما كان الأولى أن يناقشنى ..

ثم وهو يركز نظارته الطبية فوق عينيه :

ـــ إلى متى نخضع تصرفاتنا لشعارات الشارع ؟..

وانتزع ابتسامة فاترة :

ـــ من ناحيتى .. أنا أرفض أسلوب النار التى تتوهج قبل أن تخمد تماماً !..

فرض التوتر نفسه . حل صمت سادر . اكتفت الأعين بالنظر إلى اللاشئ تحتها وأمامها . لم أوفق فى وصل الخيط المقطوع ..

قلت :

ــ يكفى هذا الليلة .. نلتقى على خير ..

***

قل عدد المترددين على الندوة التالية . ثم عاد الغائبون ، بعد أن غاب زكريا عبد الباسط عن المينا الشرقية . وكانت علاقة مجدى الأسيوطى قد توثقت ــ فى الفترة الأخيرة مع أسامة صابر . رأيتهما يتمشيان بالقرب من السلسلة ، فخمنت ــ وفقاً لمنطقها ــ أنه قد راق لها . تناثرت الهمسات أنها سلّمت نفسها له ، لا لأنها أحبته ، وإنما لأنها وجدت فيه ما يدفعها إلى ممارسة الجنس . امتلأت أشرعتهما بالرياح ، وانطلقت ..

نلمح زكريا عبد الباسط ــ فى أوقات متباعدة ــ على التريانون . يجلس ــ وحيداً ــ لدقائق ، ثم يميل إلى شارع

صفية زغلول . صار أميل إلى العزلة ، وإلى الصمت . انسحب إلى داخله ، تواصل مع ذاته ، لا شأن له بالآخرين . لم أحاول أن أسلّم هليه ، ولا أن أصافحه ، أو أبادره بالكلام . أدرك أن العزلة هى اختياره الذى يجب أن أحترمه ، وأنى جزء من العالم الذى انعزل عنه ..

قال يحيى عباس :

ــ ألن نتخذ موقفاً ضد الخائن ؟..

تظاهرت بعدم الفهم :

ــ من تقصد ؟

ــ زكريا عبد الباسط ..

قالت أسامة صابر :

ــ زكريا أستاذ جامعة .. كل ما بوسعنا أن نرفض رأيه ..

التقطت طرف الخيط :

ــ غيابه عن الندوة اعتراف منا برفضنا له ..

هتف يحيى عباس :

ــ لا يكفى الرفض .. لابد من العقاب ..

قالت أسامة صابر :

ـــ هذه ندوة وليست سلطة حكومية ..

وهو يضرب الهواء بقبضته :

ـــ أصرّ على عقابه ..

همس نادر البقال فى صوت متبرم :

ـــ هل تقترح قتله ؟..

لمحت ـــ وأنا أعتدل فى جلستى ـــ رأفت الجارم ـــ وهو يتسلل بعينيه المحدقتين إلى ساقى إيناس عبود ، يتأمل ما يثيره فيهما . نظرة متوترة ، كأنها تثقب الساقين ..

ـ ١٧ ـ

غلبت على مناقشاتنا أمور السياسة ، ونقل ما كتبته الصحف ، وتحليل الأحداث ، وطرح التوقعات . وكانت صيحات النورس تترامى من الميناء الشرقية ..

فى بدايات الندوة تشرّق المناقشات وتغرّب ، لا نرسو على بر موضوع واحد . السياسة وأحدث القراءات والجو والأفلام ومباريات الكرة والمشكلات الشخصية ، ما يفد إلى الأذهان تتلقفه الأفواه فى مناقشات تتصل نهاية خيطها بطرف خيط قراءة النصوص ..

هذه هى البداية الحقيقية للندوة ..

لاحظت أن يحيى عباس أهمل حلاقة ذقنه :

ـ هل تنوى إطلاق لحيتك ؟..

ـ هذا ما تمنيته .. كان الرسول يرسل لحيته بلا تهذيب ..

ـــ وما يمنعك ؟..

ـــ أعمل فى شركة استثمار أصحابها كفرة ..

قال فتحى عيداروس :

ـــ أنت تلجأ إلى التقية ؟..

وهو يحاول كتم مشاعره :

ـــ ربما ..

قال الدكتور زكريا عبد الباسط :

ـــ مشكلة مصر هى الزيادة المتوالية فى عدد السكان ..

كان قد عاد إلى الندوة بعد فترة من انقطاعه . لم يشر ـــ ولا أحد ـــ إلى ما حدث ، حتى يحيى عباس لزم الصمت ، وإن لاح فى عينيه كدر ، وانعكس انفعاله فى ارتجافة يده ..

ورسم على شفتيه بسمة باردة :

ـــ حل هذه المشكلة هو إنقاص هذا العدد الهائل إلى أقل من النصف ، وإن أمكن فإلى الثلث !

قال مجدى ناشد ضاحكاً :

ـــ وأين يذهب الباقون ؟

لوى شفتيه :

ــ هذه ليست القضية ، وإن كنت لا أرى أن لحياتهم قيمة !

خرج يحيى عباس عن صمته المتوتر :

ــ هل نقتل الناس ليقل عددهم ؟..

قالت أسامة صابر :

ــ القضية هى من الذى نبقى عليه ، ومن الذى نستغنى عن وجوده !

قال زكريا عبد الباسط :

ــ يجب أن نناقش القضية فى ضوء خطورتها .. لا أمل فى مستقبل حقيقى ما لم ننقص هذه الأعداد المتزايدة ..

لم تعكس ملامحه الهادئة خطورة الآراء التى يقولها ، ظل هادئاً كأنه يتابع توالى مد الموج على صخور الميناء الشرقية ، وانحساره ، وظلت نبرته حيادية ..

كان يصمت عن الأسئلة التى ربما تحاول التعرف إلى حياته الشخصية . وحين يغادر المقهى لا يصحبه أحد . يلقى السلام ويمضى . نتابعه وهو يمضى من شارع الأهرام الجانبى ليستقل سيارته ، ونعود إلى مناقشاتنا ..

* * *

كان رأفت الجارم يتجه ــ عقب انتهاء الندوة ــ ناحية الشاطبى . لم أسأله أين يسكن ، لكنه لم يرافقنى فى مشوار العودة إلى البيت ..

غالب التردد :

ــ أريدك فى خدمة ..

بدا لى من هؤلاء الذين يشجعون الآخرين ــ بالحرص على كسب الود ، والميل إلى المجاملة ــ على مضايقتهم . سؤال سخيف ، أو نكتة ، أو نبرة متعالية . خمنت أنه يرى الحياة من خلال قراءاته الكثيرة ، فهو دائم الترديد لحكايات وأقوال ..

هززت رأسى مشجعاً :

ــ أريد أن أخطب زميلة ..

قفزت إلى ذهنى صورة إيناس عبود ..

ــ وما شأنى ؟..

ــ أنت المسئول عن الندوة ..

ــ عن الندوة لا عن المشاركين فيها ..

استطردت لخيبة الأمل فى عينيه :

ـ من ؟..

ـ إيناس عبود ..

ـ تحبها ؟..

ـ ولماذا أريد خطبتها ؟..

هل يعرف أنى ألحظ ما يفعله ، وأتابعه ؟..

دون أن أنظر إليه :

ـ مرتبك ـ كما أعرف ـ قليل ، وهى لا تعمل ..

وهو يمسح حبات عرق نبتت فوق جبهته :

ـ أحبّها .. وأقبل الحياة معها فى أى ظرف ..

ـ أنت تقبل .. فهل تقبل هى ؟.. هل يقبل أهلها ؟..

ـ ما معنى الحب إذن ؟!..

أطلقت أف مستاءة :

ـ الحب .. الحب .. لن تطعمها منه ..

قال ونحن نواصل السير ناحية ميدان المنشية :

ـ هل تقرضنى عشرة جنيهات ..

ثم وهو يمسح حبات عرق نبتت فوق جبهته :

ـ أسافر بعد قليل إلى البلد .. أعود بعد ثلاثة أيام ..

تفحصته بارتياب :

ـــ تطلب الزواج وليس معك ..

قاطعنى :

ـــ أريد موافقتها أولاً .. ثم أعد نفسى ..

هذا السابح فى سماوات ممتدة ، غير مرئية .. هذا الذى يرضى من فتاته بمجرد الملامسة .. هذا الذى يطلب الزواج دون أن يملك أجر العودة إلى قريته .. هل ينقل ما يدور فى الجلسة ؟.. هل يصلح لأن يكون عيناً على الندوة ؟.. هل يصلح لأى شئ ؟!..

ـ ١٨ ـ

لم أكن أتصور أنى سأزور ضابط شرطة فى مكتبه .
لم أكن أتصور أنى سأزور مجدى الأسيوطى على وجه التحديد ..

شغلتنى وسيلة التخلص منه . يعود من حيث جاء ، فلا يتردد على المقهى . بدت كل الطرق ــ أمام صداقاته المتنامية ــ مسدودة ، ففقدت الحيلة ..

بدا تغيير بيانات بطاقة عيد جزيرى مشكلة بلا حل ، أو أن الحل يستدعى وساطة ..

أشار نادر البقال بالأسيوطى . هو ضابط ، وهو أديب أيضاً ..

أردف فى تأكيد :

ــ كثير من الأصدقاء أفادوا من خدماته !..

وافتر فمه عن أسنان سودها التدخين :

ــ فى مكتبه كتب أدبية وتاريخية .. مكتب أديب !

تساءلت وأنا أتأمل حوض أسماك الزينة فى الحجرة الخافتة الضوء : لماذا يحرص ضباط الشرطة على أن تكون أحواض أسماك الزينة جزءاً من أثاث مكاتبهم ؟!..

قال مجدى الأسيوطى فى تهوين :

ــ سأتصل بأصدقاء ، وإن شاء الله خيراً !

ران صمت ..

ــ هذه فرصة لأعرف آراءكم فى آخر كتاباتى !..

فتح درجاً . وأخرج منه أوراقاً ودوسيهات ..

بدا ــ فى قراءته ــ منفعلاً وصادقاً . اختلطت القراءات بشرودى فى كرهى له الذى لم أعرف بواعثه ، وخوفى من المجهول الغائب الملامح ، وصداقته لزملاء الندوة . وهبنى إحساساُ طيباً . ثمة ما دفعنى إلى الاطمئنان إليه ، والثقة فيه . تراجعت المشاعر التى كنت أشعر بها نحوه . بدا لى ودوداً ، وطيباً ..

***

ونحن نميل من شارع عبد المنعم إلى شارع المحطة ، قال كمال أبو القمصان :

ـــ أرجو أن تجد وقتاً بعد مغرب الخميس لحضور عقد قرانى ..

قلت فى فرحة حقيقية :

ـــ مبروك !.. من سعيدة الحظ ؟

ـــ بنت ناس طيبين ..

هتفت بالتذكر :

ـــ كمال .. هل وجدت عملاً ؟

قال فى سرعة :

ـــ لا !

لاحظ دهشتى : كيف يتزوج ؟

قال :

ـــ ربنا يسهل !

ـــ كيف ؟

أعاد القول :

ـــ ربنا يسهل !

أضاف فى لهجته المهونة :

ـــ إذا كنت قد أفلحت حتى الآن فى إطعام نفسى ، فلا مشكلة فى إطعام شخص آخر !

ظللت جامداً فى ذهول صامت ، وابتلعت إحساساً بالغيظ ..

ـ ١٩ ـ

كنا ننتظر اكتمال العدد الذى نبدأ به الندوة . ظهرى إلى عمود الركن ، أتأمل الكورنيش ، والطريق ، واللافتة التى تتوسط الجزيرة : حى الجمرك .. مع السلامة . مال الحاضرون إلى الصمت ، أو انشغلوا بالهمس فى أحاديث جانبية . وكانت الكراسى مقلوبة على الطاولات ، والأرضية القنالتكس ملتمعة ، بينما يدا الجرسون عبد الغفار تدفعان ــ بالممسحة الكاوتشوك ــ بالماء المتخلف إلى أرض الطريق ..

قال مجدى ناشد :

ــ أسرفت فى الشرب .. فضللت الطريق إلى البيت ..

ــ وأين ذهبت ؟..

ــ دخلت للصلاة فى أبو العباس ..

ــ وهل لاحظ أحد ؟..

ــ تقيأت على السلالم .. خبيث شم فمى .. فأفقت على علقة ..

أقبلت علية ثروت ..

اتسعت عيناها ، والتمعتا بحزن واضح ، وتكاثفت غيوم على الوجه الرائق البشرة . خبطت حذاءها فى الأرض ، تزيل الطين العالق به ..

سبقتها إلى مائدة مجاورة لشارع الأهرام الجانبى ..

ــ أين أنت ؟..

رفعت عينيها فى تثاقل :

ــ أشكرك لأنك لاحظت غيابى ..

ــ ثلاثة أسابيع حتى الآن ..

أطالت الصمت وهى تخفض رأسها . همست :

ــ عاطف إمام ..

ــ تانى ؟..

هزت رأسها :

ــ تانى !..

* * *

كانت قد ودعت زميلاتها عند الباب الخارجى لحدائق أنطونيادس . كانت شمس الظهر قد قلصت الظلال ، وران على الحدائق سكون ، واحتمى الزوار بالأبنية والأشجار . المصادفة دبرت اللقاء ، وإن بدا كأنه ينتظرها . قال وهو يقترب بوجهه منها :

ــ لا تريدين مناقشة مشكلتى ..

برقت عيناها بالدهشة والخوف :

ــ أية مشكلة ؟..

غابت نظراته عن النجيل الأخضر ، وأحواض الزهور ، والنافورات ذات الأسود التى تنبثق المياه من أفواهها ، والتماثيل الإغريقية ، والنخيل الملكى ، وحديقة الورد . كان يعنيه أن يفض ما بنفسه ، يروى لها ما يشغله ..

ــ لا تصدقين ؟.. مشكلتى نفسية ..

ومد أصابع مرتعشة إلى حقيبة جلدية صغيرة فى يده :

ــ كتب لى الطبيب أدوية ، ونصحنى ..

وداخل صوته تهدج :

ــ لابد أن أقيم علاقة مع فتاة ..

ــ وما شأنى ؟..

ـــ لا علاقات لى ..

أطلق ضحكة قصيرة ، مرتبكة :

ـــ أنا لم أصادق فتاة حتى الآن ..

علا صوتها :

ـــ يا أستاذ عاطف .. لماذا لا تتزوج ؟..

ـــ أدفع ـــ بالكاد ـــ أجرة الحجرة ..

زوت حاجبيها ، ونفثت زفرة :

ـــ من تظننى ؟..

همت بالانصراف ..

تلفت حوله بنظرة مرتبكة ، ثم ألقى بنفسه ـــ فجأة ـــ عليها . دفعته عنها بقبضتيها ، لكنه أحاطها بساعديه . حاولت التملص ، فازداد التصاقاً بها . دفعها تجاه الحائط ، وأسند كفيه عليه ، فلا تستطيع التخلص . انزلقت من تحته ، ودفعته بآخر ما عندها . أزاحت ـــ بأصابعها ـــ خصلات الشعر المنثورة على وجهها ..

* * *

أعادت القول بنبرة مستاءة :

ـــ من يظننى ؟..

ذهلت لعرضى بأن أفاتحه : هل تريد للنار الصغيرة أن تصبح حريقاً ؟!..

ــ أريد أن تظلى فى الندوة ..

ــ سأظل .. فأنا لا أستطيع فراق أصدقائى ..

ثم وهى تشيح بوجهها بعيداً :

ــ كانت الأيام الفائتة فرصة لأداوى الجرح ..

هززت رأسى فى أسف :

ــ وهل تداوى ؟..

جزت على أسنانها :

ــ أرجو !..

عادت إلى الكرسى المجاور للنافذة المفتوحة . هو الكرسى الذى تفضل الجلوس عليه . حين أتى عاطف إمام ، وجلس ، تنقلت نظرتى ــ بتلقائية ــ بين عاطف إمام وبينها . اجتذبنى ــ فى اللحظة التالية ــ قول نادر البقال :

ــ المصيبة أنك لا تعرف عن عبد الناصر إلاّ ما تنشره الصحف .. وكلها آراء يهمها الهدم وليس النقد ..

قال مجدى ناشد :

ــ الرجل مات .. فلا مصلحة لأحد فى مدحه أو ذمه ..

قال نادر البقال :

ــ هذه تصفية حسابات !

***

حين ألقى محمد الأبيض التحية وجلس ، فطنت إلى أنه غاب ــ لأسابيع ــ عن الندوة ..

ــ وحشتنا ..

احتضنته بنظرة دافئة :

ــ أين كنت ؟..

اغتصب ابتسامة :

ــ حكاية طويلة ..

***

طالعها وجه الضابط وراء شراعة الباب . تذكرته . قال إنه يريد تفتيش الشقة . قالت وهى تفتح الباب :

ــ حجرته خالية ..

قال بلهجة باردة :

ــ الشقة كلها ..

أضاف مطمئناً :

ــ لن يأخذ الأمر سوى لحظات ..

فتشوا البيت ، فلم يجدوا شيئاً ، لا أوراق ولا متفجرات ولا أسلحة ، لا أى شئ ..

نظر الضابط إلى الحقيبة الصغيرة فى يدها :

ــ لا داعى لأى شئ .. فلن يتأخر ..

ــ إنها غيارات داخلية ..

فى لهجة باترة :

ــ لن يحتاج إليها ..

ثم وهو يدفع محمد الأبيض أمامه بيد مترفقة :

ــ لا داعى للقلق !.. مجرد أسئلة يجيب عليها ويعود ..

* * *

قالت الأم :

ــ خدعنى الضابط .. قال إنه سيعود فى الليلة نفسها .. وها قد مضى شهران دون أن أعرف مكانه !..

* * *

عندما وقف أمام الضابط ، قال وهو يتجه بعينيه إلى الناحية الأخرى :

ــ كنت متهماً .. فلما ثبتت براءتى ، أخليتم سبيلى .. أليس كذلك ؟..

***

عاد محمد الأبيض إلى المينا الشرقية والندوة والعمل والبيت ، لكنه ــ قال لى ــ لم يعد إلى الحياة ، حياته . بدت لحظات متوالية من الانتظار . الأقدام المتسللة ، أو المقتحمة ، تصعد السلالم . تطرق الباب . يصحبونه إلى الحجرة الباردة ، المصمتة ، والأسئلة ، والعنبر ، والزنزانة الانفرادية ، والتوقعات التى لا تنتهى ..

وقال لى ، ونحن نطل من البلكونة على شارع الموازينى :

ــ هذه الحادثة القديمة .. جثة أجرّها ورائى ..

وهز كتفيه فى نفاد حيلة :

ــ يبدو أن الملف لن يغلق إلاّ إذا وضعوا فى داخله شهادة وفاتى ..

وعلا صوته كالمتنبه :

ــ ألا تخشى من نتائج زياراتك لى ؟..

بدا السؤال مفاجئاً ..

هل تراقبنى الأعين المطاردة إلى بيت الأبيض ؟ هل تجد فى زياراتى له ما يدعو إلى ملء التقارير والمساءلة ؟ هل يحمل السؤال إشفاقاً ، أو أنه يخشانى مثلما أخشى الجميع ؟.. أسلمت النفس لمواقف أتصورها . أبادل نفسى الحوار . أحيا فى جزر ، أنقل إليها من أعطيه ولا آخذ منه ..

أزمعت أن أتوقف عن زيارته ، وتمنيت لو أنه غاب ، لو أنه لا يتردد على الميناء الشرقية . خاف من التردد على الندوة ، ولزم البيت ..

قلت لمجرد أن أتكلم :

ــ الرصاصة انطلقت عندما عرفت أن الندوة مراقبة !.

***

انتفضت من نومى على صوت يترامى من الطريق : عادل مهدى ..

فتحت النافذة ..

كانت الظلمة شفيفة قبل طلوع الصباح . بدا الشارع خالياَ تماماً ، ماعدا كلب ينبش فى قمامة ، تحت رصيف البيت المقابل ..

ـ ٢٠ ـ

لمحته أمام باعة الكتب القديمة فى النبى دانيال . ثمة ــ على الرصيف وفوق طاولات خشبية صغيرة ــ كتب بأحجام متباينة ، وملونة ، عن عذاب القبر ، وحساب الملكين ، وهول يوم القيامة ، والسحر ، والتنجيم ، والفلك ، والأبراج ، والتصرف السليم فى ليلة الزفاف ، وأغنيات أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم حافظ ، وكيف تقرأ الإنجليزية فى أربع وعشرين ساعة ..

كان يفاصل فى شراء مجلات أجنبية ، أغلفتها صور عارية ..

رسمت على شفتى ابتسامة ود :

ــ تشترى المجلات الجنسية .. والمسكينة علية ثروت تدفع الثمن ..

التمعت عينا عاطف إمام بالفهم :

ــ هل قالت لك ؟..

ربت كتفه بود :

ــ أنا صديق لكل الزملاء فى الندوة ..

ــ لم أكذب على علية .. رويت لها ما حدث ..

ــ ما ذنبها ؟

ــ صدقنى .. أنا أحب علية ..

ــ أتصور إنها لن ترفض لو تقدمت إليها ..

ــ سترفض إذا عرفت أن مرتبى يطعمنى بالكاد ..

أعدت السؤال :

ــ ما ذنبها إذن ؟

طالعنا ميدان المنشية . الزحام ، والنخيل الملكى ، والتندات أعلى واجهات الدكاكين ، وموقف الأوتوبيس ، وصرير عجلات الترام ، وأشعة الشمس تضوى بالألق فى نصب الجندى المجهول ..

لاحظت ارتعاشة شفته السفلى ، والاهتزازة المتوالية فى رموشه . خمنت أنه يغالب الرغبة فى الكلام ..

* * *

رفضت أن تزورنى لأنى أدخل إلى البناية من الباب الخلفى ، وأصعد إلى حجرتى على السطح من سلم الخدم الحلزونى ، الضيق . أخلو إلى نفسى فى الحجرة فوق السطح . تطل على شارع صلاح الدين . أثاثها سرير معدنى صغير ، وطاولة مستندة إلى الحائط . يدخل فى فراغها كرسى خشبى ، ومكتبة ذات أرفف ثلاثة على قوائم أربعة . وعلقت ملابسى على مسامير متجاورة ثبتها فى الحائط ..

حين أغلق الباب ، فإنى أحيا فى عالم خاص لا يشاركنى فيه أحد . أختار فى تطلعى إلى السقف صورة طبعتها فى ذهنى ، أتأملها ، أعيد تأملها . يضايقنى الجسد الذى يتألب علىّ . يدفعنى إلى ما لم أتصور أنى أفعله . يشغلنى حتى عن العادى والمألوف . تناوشنى الحاجة ، أو تتفجر . أغمض عيني . تنشط الذاكرة ، والتصورات . تزورنى الأطياف الوحشية . أستدعى من الأجساد ــ التى أعرف صاحباتها ــ الملامح والقسمات ومواضع التحديق ، أختلق ما يجمع بين ذلك كله ، وأضيف إليه ، فتكتمل الصورة . ربما لمحت الساقين العاريتين فى فيلم بسينما بلازا ، والوجه ذى الشفتين الشهوانيتين فى شارع النبى دانيال ،

وربما التقت الأعين فى محطة أوتوبيس ، أو لامست الذراع العارى فى ترام ٤ ، وربما التقيت بالمرأة فى سوق راتب . أعرّى طيفها الذى استدعيته ، بما أتيح لى التأمل والتحديق والنشوة ، وسرحات الخيال التى لا يحدها قيد . تمتلئ الحجرة بأجساد ووجوه وأثداء وأرداف وابتسامات وتكشيرات وضحكات صاخبة . تفح الهمسات ، وتتعالى الأغنيات ، والرقصات الهادئة والعنيفة . أطلق لخيالى المدى ، فلا تحفظات ..

***

داخل صوتى إشفاق :

ـــ لماذا لا تذهب إلى طبيب ..

قال فى صوت مهزوم :

ـــ هو الذى نصحنى بأن أصادق فتاة .. أن أقيم معها علاقة ..

وأنا أتأمل ملامحه المتقلصة :

ـــ فاخترت علية ..

رمقنى بنظرة رافضة :

ـــ علية لا تأتى فى استدعاءات خيالى ..

ثم وهو يخفض رأسه :

ـ أنا أحب علية بالفعل ..

***

لم أصدق ما قاله بسيونى . استعدت العبارة :

ـ عيد جزيرى مات !..

أشار إلى الطاولة المقابلة لامتداد القهوة إلى الناحية الخلفية :

ـ كان يجلس هناك .. صرخ من ألم مفاجئ . ثم تقيأ دماً ..

وتداخلت فى صوته بحة تأثر :

ـ لما جاءت الإسعاف كان السر الإلهى قد صعد ..

ثمة شعور بالتنميل ، بالشلل ، زحف على جسدى ، فيثقل ، وبساقى تفقدان الإحساس . قيود لا أرها شدتنى إلى الأرض ، ألزمتنى مكانى ، فلا أقوى على الحركة . انتزعت الكلمات بصعوبة :

ـ لم أكن أعرف أنه مريض ..

قال بسيونى :

ــ ولا أنا .. ولا أى أحد ..

ثم وهو يهز رأسه :

ــ لكن ظروفه كانت صعبة ..

قال عاطف إمام :

ــ كيف ؟..

ــ أجره قروش .. وأهله فى الصعيد ..

وأعاد القول :

ــ كانت ظروفه صعبة !..

لم أكن أعرف أكثر مما أخبرنى به فتحى عيداروس . نزل عيد جزيرى مع أقارب له من الصعيد ، للدراسة والعمل . اقتصر ــ بتأثير الظروف ــ على العمل بائعاً فى محل لملابس الأطفال بشارع صفية زغلول ..

كنت ألاحظ عدم ألفته لقعداتنا فى الندوة . يبدو فى جلسته كصدفة منغلقة على نفسها . تصورت المتاعب فى صدره سبباً . كان يحرص على ألا يؤذى مشاعر الآخرين . حتى الملاحظات التى ربما آذته ، يهملها ، فلا يظهر أنه استمع إليها ، أو فهمها . ولم يكن يمتلك النقاش ، الأخذ والرد ، إلقاء الأسئلة والبوح بالأجوبة ..

لم تكن مشاركته فى الندوة تتعدى السؤال ، أو الملاحظة السريعة . ربما للثأثأة التى كانت تسبق كلامه . وكانت قراءاته ـــ فى شعر العامية ـــ متباعدة . يحفظ ما يكتبه ، ولا يقرأه من الورق . كان منكتماً ، لا يصارح أحداً بما فى نفسه . كثيراً ما تنسحب نفسه إلى داخلها ، يهزمها الشرود ، وتلزم الصمت ..

كان نحوله قد زاد ـــ فى الفترة الأخيرة ـــ وذهبت الالتماعة من عينيه . يلوذ بمحارته ، لا يتحدث عن نوبات الربو ، ولا إخفاق أدوية القسم الخارجى بمستشفى جمال عبد الناصر فى علاجها . قال بسيونى إن أزمة الربو اشتدت عليه ـــ ليلة ـــ حتى نزف الدم من رئتيه . وكان يتعاطى أدوية كتبها له الطبيب فى قسم الاستقبال بالمستشفى الأميرى ..

دفع لى بسيونى بحقيبة بنية اسودت جوانبها بتأثير العرق . لم تكن تفارقه . أطلت من داخلها أوراق متآكلة الأطراف ..

الأوراق مكتوبة بقلم الرصاص . جرى فيها بالشطب والمسح . العبارات غير مترابطة ، ولا تعبر عن معنى محدد

، لكن الحزن هو المعنى الذى خرجت به ، حزن عميق أثقل صدره ، فهمه أن يتخلص منه . تناثرت أسماء المترددين على الندوة . التقطت اسمى ..

هل كان هو ؟..

ترامت من ناحية البحر رائحة بقايا أسماك ، خلّفها صيادو الجرافة ..

قال رأفت الجارم :

ــ هذه الأوراق صوّرت قبل أن يسلمها لك بسيونى ..

ــ لماذا ؟..

وهو يتلفت حوله :

ــ ألا تعرف أنه عين على الندوة ؟..

غيمت سحابة أمامى :

ــ تقصد ؟..

وهو يشير بإصبعه إلى عينه :

ــ وعين على كل رواد القهوة .. هذه وظيفته ..

ونفث من أنفه زفرة :

ــ بسيونى يساعد بالنقود وبالمواساة والكلمة الحلوة .. وربما استضاف الناس فى بيته ليحصل على ما فى صدورهم ..

بسيونى ؟!..

كان يرافق سؤاله عن الطلبات قوله : ما الأخبار ؟.. أجيب فى دعابة سئمتها : مثل الأهرام !.. هل كان السؤال له معنى حقيقى ؟.. هل كان يجاوز الاطمئنان المجامل للظروف الشخصية ، إلى آفاق لم أتصورها ، ولا أعددت نفسى لها ؟..

قلت متذكراً :

ــ لهذا كان يستضيف عيد جزيرى فى بيته ..

ضغط بإصبعين على جانبى جبهته ، وأغمض عينيه فى تألم :

ــ لهذا يسأل فى السياسة ، ويقرض النقود ، ويمسح الطاولات كل دقيقة ..

استعدت عباراته الساخطة ، لا تقصد شخصاً بالذات ، ولا جهة بالتحديد ، لكنه كان ينتقد ويرفض ويلقى أسئلة ، تبدو عفوية ، ويتوقع أجوبة يريدها ..

قال لى بسيونى :

ــ سلمتك الأوراق لأنك رئيس الندوة ..

ــ لا رئيس ولا مرءوسون .. نحن أصدقاء نلتقى لنتكلم فى الأدب ..

ــ هذه ندوة أدبية ، ولها رئيس .. فهو الذى يتسلم ما يخصها !

كأننى أدفع تهمة :

ــ كان يقيم فى بيتك وليس فى بيتى ..

اكتسبت ملامحه الهادئة شراسة غريبة :

ــ أراد أن ينام فى القهوة !..

***

ران صمت متوتر ، إلاّ من سعلة ، أو همسة متأثرة ، أو مصمصة شفاه ، أو خشخشة أوراق . وهدير الأمواج المترامى من ناحية البحر ، وهسيس النخيل على امتداد الطريق . غرق الجميع فى لحظات من الذهول والصمت والتأمل . دهمنا إحساس بأن موت عيد جزيرى هو مسئوليتنا نحن . نحن تركناه يموت دون أن نفعل شيئاً ..

اتجه فتحى عيداروس إلى محسن سالم بنظرة ذات مغزى ، حين فاجأنا محمد الأبيض بالسؤال :

ــ هل نعيده إلى الصعيد أو ندفنه هنا ؟..

انتزع محسن سالم الكلمات :

ــ السفر إلى الصعيد مكلّف .. والأوفق أن ندفنه هنا ..

تسلل إلى داخلى شرخ ، أخفقت فى منع اتساعه :

ــ ليس أمامنا إلاّ مقابر الصدقة ..

صرخ محمد الأبيض بلثغته الواضحة :

ــ ولماذا لا ينزل فى مدفن نعرفه ؟.. أليس لأسركم مدافن ؟..

قال محسن سالم :

ــ لأسرنا وليس لنا ..

قال محمد الأبيض :

ــ إذن .. اتركوه فى المشرحة لطلبة الطب ..

قالت أسامة صابر :

ــ أليس له أهل فى الإسكندرية ؟

قال الأبيض :

ــ لا وقت للسؤال عن أهله ..

ظل الصمت فى توتره وصخبه . بدا الخروج من المأزق متاحاً ، وبدا مفتقداً كقارب ابتلعته النوة ، ولم نجد ما نفعله ملاذاً من الحيرة ..

تبينت صوت مرتضى النادى لما اقتحم الصمت الذى غابت فى غيومه خطواتنا التالية :

ــ أعددت كل شئ ..

قال نادر البقال :

ــ ماذا تقصد ؟..

فى نبرة متفاخرة :

ــ أعددت تصريح الدفن .. والمقبرة أيضاً !..

غالبت ما يشبه الاختناق يضغط على صدرى :

ــ كيف ؟..

ــ أبلغتنى أسامة إنكم لا تستطيعون التصرف ..

ثم وهو يضع كتابين بالإنجليزية على الطاولة :

ــ ملت فى طريقى على مكتب سكرتير عام المحافظة..

ذابت الأسئلة والملاحظات والتعليقات لما فتح النادى الباب دون توقع . كانت كل الطرق مسدودة . تراوحت

الاحتمالات ، وتباينت ، واختلطت ، وتشابكت ، وفرضت الحيرة نفسها .. تحركت الكراسى ، وتعالت النداءات والمناقشات والآراء المتلاغطة . حتى المشاعر الرافضة لمرتضى النادى كتمها أصحابها . لم يعد إلا نهاية المأزق الذى بدا بلا حل . زالت الحواجز بين أصدقاء الندوة ، وامتلأت المشاعر بالاقتراب والألفة ..

***

غادرت المينا الشرقية وثمة مشاعر تتماوج فى داخلى ، لم أقدر على التعرف إليها ، ولا الإمساك بها . الغضب والخوف والقلق والرفض والاستسلام واللامبالاة ..

لم يكن عيد جزيرى قريباً منى ، ولا كان صديقاً حقيقياً ، لكن وفاته المفاجئة أبانت لى سخف كل شئ ..

ما الحياة ؟ وما الموت ؟ وما معنى أن ينتهى المرء فى لحظة ، يتلاشى ، كأنه لم يكن . تغيب الأحلام والرغبات والأشواق والتطلعات ؟ لماذا القراءة والكتابة والندوة والمناقشات والمراقبة والخوف ، مادامت الملامح الثابتة ماثلة فى مدى الأفق ؟ لماذا نولد إن كان العدم حتمية النهاية ؟..

داخل الحزن ــ الذى تملك نفوسنا ــ خوف . قال قورة إدريس : الشباب أيضاً يأخذهم الموت . قال محمد الأبيض : وهل يقتصر اختياره على السن المتقدمة . يقين النفس ــ الذى لا تعلنه ــ أن الموت فى حياتنا بلا أفق ، فهو لا يشغلنا . الموت إذن فى الأفق القريب ، ولعله يقف فى الباب ، أو فى النافذة ، ولعله يقاسمنا الفراش ، أو داخل نفوسنا ..

لم أعد أرغب فى الإمساك بالحبل الذى لا أدرى أين بدايته ، ولا أين نهايته ..

أهملت تلويحة فاروق أبو سليم فى جلسته بالقرب من الأبواب الخلفية ، وإن تصورت أنى رأيت المرأة التى يجلس إليها ، فى القناة الخامسة ..

فى انحناءة الطريق إلى ميدان المنشية ، رددت ــ بهزة من رأسى ــ تحية الدكتور زكريا عبد الباسط ، وواصلت السير ..

كانت صلته بجلساء الندوة تنتهى بانصرافه . اعتدت ــ حين نلتقى فى الطريق ــ هزة رأسه المحيية . أبادله بهزة من رأسى ، وأواصل السير ..

* * *

لما عدت إلى البيت ، كنت متعباً . ظل طيف عيد جزيرى ــ لعدة جلسات ــ يحوّم فوقنا . يتخلل المناقشات والتذكّر والحزن الذى تملك النفوس ..

قالت أمى :

ــ منذ ساعتين .. سأل عنك ثلاثة رجال ..

ووشى صوتها بالخوف :

ــ ذهبوا إلى سيارة سوداء بلا أرقام فى ناصية الشارع ، وجلسوا داخلها ..

نظرت من خصاص النافذة . رأيت السيارة فى مكانها . وضعت ما أحمله من أوراق ومجلدات على مائدة الطعام ، وأوصيتها بنفسها ..

ثم نزلت إليهم .

مصر الجديدة ــ محمد جبريل ــ ١٩٩٢/٤/٢

مؤلفات محمد جبريل

١ ــ تلك اللحظة (مجموعة قصصية) ١٩٧٠ ــ نفد

٢ ــ الأسوار (رواية) الطبعة الأولى ١٩٧٢ هيئة الكتاب ــ الطبعة الثانية ١٩٩٩ مكتبة مصر

٣ ــ مصر فى قصص كتابها المعاصرين (دراسة) الكتاب الحائز على جائزة الدولة ــ ١٩٧٣ هيئة الكتاب

٤ ــ انعكاسات الأيام العصيبة (مجموعة قصصية) ١٩٨١ مكتبة مصر ــ ترجمت بعض قصصها إلى الفرنسية

٥ ــ إمام آخر الزمان (رواية) الطبعة الأولى ١٩٨٤ مكتبة مصر ــ الطبعة الثانية ١٩٩٩ دار الوفاء لدنيا الطباعة بالإسكندرية

٦ ــ مصر .. من يريدها بسوء (مقالات) ١٩٨٦ دار الحرية

٧ ــ هل (مجموعة قصصية) ١٩٨٧ هيئة الكتاب ــ ترجمت بعض قصصها إلى الإنجليزية والماليزية

٨ ــ من أوراق أبى الطيب المتنبى (رواية) الطبعة الأولى ١٩٨٨ هيئة الكتاب ــ الطبعة الثانية ١٩٩٥ مكتبة مصر

٩ ــ قاضى البهار ينزل البحر (رواية) ١٩٨٩ هيئة الكتاب

١٠ ــ الصهبة (رواية) ١٩٩٠ هيئة الكتاب

١١ ــ قلعة الجبل (رواية) ١٩٩١ روايات الهلال

١٢ ــ النظر إلى أسفل (رواية) ١٩٩٢ ــ هيئة الكتاب

١٣ ــ الخليج (رواية) ١٩٩٣ هيئة الكتاب

١٤ ــ نجيب محفوظ .. صداقة جيلين (دراسة) ١٩٩٣ هيئة قصور الثقافة

١٥ ــ اعترافات سيد القرية (رواية) ١٩٩٤ روايات الهلال

١٦ ــ السحار .. رحلة إلى السيرة النبوية (دراسة) ١٩٩٥ مكتبة مصر

١٧ ــ آباء الستينيات .. جيل لجنة النشر للجامعيين (دراسة) ١٩٩٥ مكتبة مصر

١٨ ــ قراءة فى شخصيات مصرية (مقالات) ١٩٩٥ هيئة قصور الثقافة

١٩ ــ زهرة الصباح (رواية) ١٩٩٥ هيئة الكتاب

٢٠ ــ الشاطئ الآخر (رواية) ١٩٩٦ مكتبة مصر ــ ترجمت إلى الإنجليزية

٢١ ــ حكايات وهوامش من حياة المبتلى (مجموعة قصصية) ١٩٩٦ هيئة قصور الثقافة

٢٢ ــ سوق العيد (مجموعة قصصية) ١٩٩٧ هيئة الكتاب

٢٣ ــ انفراجة الباب (مجموعة قصصية) ١٩٩٧ هيئة الكتاب ــ ترجمت بعض قصصها إلى الماليزية

٢٤ ــ أبو العباس ــ رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٧ مكتبة مصر

٢٥ ــ ياقوت العرش ــ رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٧ مكتبة مصر

٢٦ ــ البوصيرى ــ رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٨ مكتبة مصر

٢٧ ــ على تمراز ــ رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٨ مكتبة مصر

٢٨ ــ مصر المكان (دراسة فى القصة والرواية) ١٩٩٨ هيئة قصور الثقافة

٢٩ ــ حكايات عن جزيرة فاروس (سيرة ذاتية) ١٩٩٨ دار الوفاء لدنيا الطباعة بالإسكندرية

٣٠ ــ الحياة ثانية (رواية تسجيلية) ١٩٩٩ ــ دار الوفاء لدنيا الطباعة بالإسكندرية

٣١ ــ حارة اليهود (مختارات قصصية) ١٩٩٩ هيئة قصور الثقافة

٣٢ ــ رسالة السهم الذى لا يخطئ (مجموعة قصصية) ٢٠٠٠ ــ مكتبة مصر

٣٣ ــ بوح الأسرار (رواية) ٢٠٠٠ روايات الهلال

٣٤ ــ مد الموج ــ تبقيعات نثرية (رواية) ٢٠٠٠ ــ مركز الحضارة العربية

٣٥ ــ البطل فى الوجدان الشعبى (دراسة) ٢٠٠٠ ــ هيئة قصور الثقافة

٣٦ ــ نجم وحيد فى الأفق (رواية) ٢٠٠١ ــ مكتبة مصر

٣٧ ــ زمان الوصل (رواية) ٢٠٠٢ ــ مكتبة مصر

٣٨ ــ موت قارع الأجراس (مجموعة قصصية) ٢٠٠٣ ــ هيئة قصور الثقافة

كتب عن المؤلف

١ ــ العالم القصصى عند محمد جبريل ــ مجموعة باحثين ــ مكتب منيرفا بالزقازيق ١٩٨٣

٢ ــ دراسات فى أدب محمد جبريل ــ مجموعة باحثين ــ مكتب منيرفا بالزقازيق ١٩٨٤

٣ ــ البطل المطارد فى روايات محمد جبريل ــ حسين على محمد (دكتور) ــ دار الوفاء بالإسكندرية ١٩٩٩

٤ ــ فسيفساء نقدية ــ تأملات فى العالم الروائى لمحمد جبريل ــ ماهر شفيق فريد (دكتور) ــ دار الوفاء بالإسكندرية ١٩٩٩

٥ ــ محمد جبريل .. موال سكندرى ــ فريد معوض وعدد من الأدباء والنقاد ــ كتاب سمول١٩٩٩

٦ ــ استلهام التراث فى روايات محمد جبريل ــ سعيد الطواب (دكتور) ــ سندباد للنشر ١٩٩٩

٧ ــ تجربة القصة القصيرة فى أدب محمد جبريل ــ حسين على محمد (دكتور) ــ كلية اللغة العربية بالمنصورة ٢٠٠١

٨ ــ فلسفة الحياة والموت فى رواية الحياة ثانية ــ نعيمة فرطاس ــ أصوات معاصرة ٢٠٠١

٩ ــ روائى من بحرى ــ حسنى سيد لبيب ــ هيئة قصور الثقافة ٢٠٠١

١٠ ــ محمد جبريل ــ مصر التى فى خاطره ــ حسن حامد ــ أصوات معاصرة ٢٠٠٢